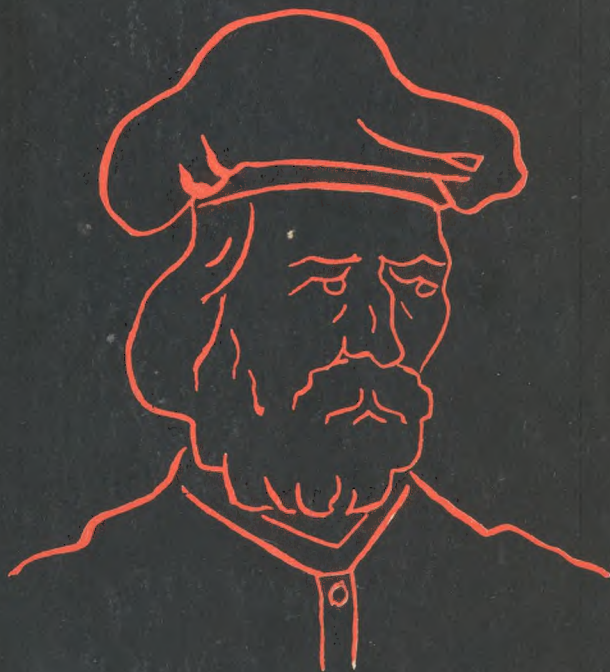


خاريسُ بالدی

أبو إيطاليا الحديثة



٧



تأليف: مارسيا دافنيورت
ترجمة: علي أدهم
مراجعة وتقديم: الدكتور زكي نجيب محمود

« معالم الطريق »
شخصيات وأحداث غيرت مجرى التاريخ
بإشراف الدكتور زكي نجيب محمود

(٧)

فَارِيبَ إِلَى
مَنْشَى وَإِيطَالِيَا الْحَدِيثَةِ

نشر هذا الكتاب بالاشتراك

مع

مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر

القاهرة - نيويورك

فبراير سنة ١٩٦٣

خاريسا الديرى منهىء الى ايطالىا الحديثة

تأليف

مارسيا داقنيورت

مراجعة وتقديم

الدكتور زكى نجيب محمود

ترجمة

على أدھم



مكتبة الانجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

هذه الترجمة مرخص بها وقد قامت مؤسسة فرانكلين للطباعة
والنشر بشراء حق الترجمة من صاحب هذا الحق .

This is an authorized translation of GARIBALDI :
Father of Modern Italy by Marcia Davenport. ©
Copyright, 1957, by Marcia Davenport. First published
by Random House, Inc., New York.

المشتركون في هذا الكتاب

المؤلفة : مارسيا دافنبورت

تلقت تعليمها في الولايات المتحدة وأوروبا وتكلم خمس لغات • كان كتابها الأول عن حياة موزار نشر سنة ١٩٣٢ • تشمل رواياتها ، رواية "Lena Gayer" عن حياة إحدى المغنيات ورواية « وادي العزم » The Valley of Decision عن حياة أسرة تعمل في صناعة الصلب ببتسبرج • تقضى مارسيا دافنبورت نصف العام في نيويورك والنصف الثاني في إيطاليا على بحيرة كومو حيث ألقت كتابها عن غاريبالدي ، وقد سارت متتبعة خطى الرجل العظيم في إيطاليا كلها لتعد هذا الكتاب ، كما زارت منزله في جزيرة كابريرا •

المترجم : علي أدهم

تقلب في عدة وظائف في وزارة التربية والتعليم كان في آخرها مراقبا مساعدا ونائبا لمدير ادارة الثقافة العامة بوزارة التربية والتعليم ، له عدة ترجمات ومؤلفات منها : « محاورات رينان الفلسفية » و « ألوان من أدب الغرب » و « مستقبل روسيا » •

ومن مؤلفاته : « المذاهب السياسية المعاصرة » و « الجمعيات السرية » و « بعض مؤرخي الأعلام » و « بين الأدب والفلسفة » كما أن له بعض كتب في التاريخ للأشخاص مثل « صقر قریش » و « متزيني » و « منصور الأندلس » •

المراجع وصاحب المقلمة : الدكتور زكى نجيب محمود

أستاذ المنطق ومناهج البحث بكلية الآداب بجامعة القاهرة ،
حصل على درجة الدكتوراه فى الفلسفة من جامعة لندن • مؤلف
لعدد كبير من الكتب فى الفلسفة وفى النقد الأدبى • من أهم
مؤلفاته فى الفلسفة « المنطق الوضعى » و « خرافة الميتافيزيقا »
و « نحو فلسفة علمية » و « حياة الفكر فى العالم الجديد » الذى
أصدرته هذه المؤسسة • ومن مؤلفاته فى تاريخ الأدب ونقده
« فنون الأدب » و « قصة الأدب فى العالم » • ترجم كتاب
« المنطق » لمؤلفه جون ديوى ، وهو من الكتب التى نشرتها
هذه المؤسسة • نال جائزة الدولة التشجيعية لسنة ١٩٦٠ •

مصمم الغلاف : حسن عبد الرحيم عنبر

يدرس بكلية الفنون الجميلة (قسم نحت) ، صمم عدة أغلفة
لبعض الكتب التى أصدرتها المؤسسة •

محتويات الكتاب

صفحة

| | | |
|-----|-----------|---|
| ١ | • • • • • | هذه السلسلة |
| ٣ | • • • • • | مقدمة |
| ٧ | • • • • • | الفصل الأول - الربان الشاب |
| ١٦ | • • • • • | الفصل الثاني - أنيتا والمنفى |
| ٢٥ | • • • • • | الفصل الثالث - غاريبالدى والقمصان الحمر |
| ٣٣ | • • • • • | الفصل الرابع - ارهاصات الثورة |
| ٣٧ | • • • • • | الفصل الخامس - البابا يهرب من روما |
| ٤٤ | • • • • • | الفصل السادس - أول انتصار لغاريبالدى |
| ٥٣ | • • • • • | الفصل السابع - الحيانة الفرنسية وأخطاء متزىنى |
| ٦٠ | • • • • • | الفصل الثامن - حصار روما |
| ٦٧ | • • • • • | الفصل التاسع - نحن الذين على شفا الموت نحىيك |
| ٧٥ | • • • • • | الفصل العاشر - الانسحاب من روما |
| ٨٣ | • • • • • | الفصل الحادى عشر - العودة الى المنفى |
| ٩١ | • • • • • | الفصل الثانى عشر - تحرير لمباردى |
| ٩٨ | • • • • • | الفصل الثالث عشر - ابحار الألف |
| ١٠٧ | • • • • • | الفصل الرابع عشر - نزول الألف الى البر |
| ١١٥ | • • • • • | الفصل الخامس عشر - معركة كلاتافيمى |
| ١٢٣ | • • • • • | الفصل السادس عشر - الانتصار فى صقلية |
| ١٣٠ | • • • • • | الفصل السابع عشر - انشاء ايطاليا |

« معالم الطريق »

هذه السلسلة

بقلم

الدكتور زكي نجيب محمود

الرجال الأعلام ، والأحداث الجسام ، هي المعالم المضيئة ، التي يستهديها الرائي إذا ما كر بصره راجعا ، ليرى كيف سارت الانسانية فى طريقها منذ فجرها حتى بلغت هذا الذى بلغته فى يومنا الراهن ، نعم ان تطور التاريخ قد كان مرهونا دائما بكبد الجماهير وكدحها ، لكن طبائع الأمور تقتضى أن تتبلور تلك الجماهير الكادة الكادحة فى رجل ينطق بلسانها ويعبر عن وجدانها ، اذا ما كان الموقف موقف قول وتعبير ، ويضم فاعليتها ، ويجمع نشاطها تحت قيادته ، اذا ما كان الموقف موقف فاعلية ونشاط . وهكذا يرى الرائي - اذا أرسل البصر الى الطريق التى سارت عليها الانسانية ابان تاريخها الطويل - يرى الرائي عندئذ أن ثمة معالم تحدد مراحل السير ، وهى معالم ان تكن تشمخ برءوسها فوق سطح الأشخاص والحوادث ، الا أنها نابعة من الطبيعة نفسها التى يتألف منها هؤلاء الأشخاص والحوادث ، فكأنما هاتيك الأعلام هى رؤوس الموج فوق سطح البحر ، تعلو على محيطها المائى ، لا لأنها مختلفة عن ذلك المحيط ، بل لأن ذلك المحيط المائى نفسه هو الذى دفعها الى أعلى لتكون له الظاهر المرئى لمن وقف عند الشاطئ يرسل البصر .

ولقد أردنا بهذه السلسلة من الكتب أن نقدم الى شبابنا القارىء صورا موجزة لكنها قوية ناصعة ، لما نتخيره له من جسام الأحداث وأعلام الرجال الذين نسجوا بخيوطهم نسيج الحياة كما نحيها اليوم :

فمن الرجال من كشف قارة ، ومنهم من ارتاد محيطا مجهولا ، ومن الرجال من حرر بلاده ، ومنهم من خلص البشرية كلها من وباء فاتك ، أو من أنتج للبشرية كلها أثرا خالدا من علم أو من فن ، وكذلك قل فى كبريات الأحداث التى كان الحدث الواحد منها بمثابة نقطة التحول فى مجرى التاريخ كله : فما ظنك بما قد صنعه رجال (أو نساء) من أمثال اسكندر الأكبر ، وجنكيز خان ، وجان دارك ، وماركوبولو ، ومارتن لوثر ، وليوناردو دافينشى، وغاريبالدى ، وكولمبس ؟ ثم ما ظنك بأحداث من قبيل موقعة ووترلو ، وماجنا كارتا (أو العهد الأعظم) ، وكشف القطبين ، وصعود الهملايا ، والانتصار على جرائيم الحميات ؟ تلك كلها قمم تلخص جهود الانسان فى صنع حضارته وثقافته .

ان الانسان الواحد العظيم ، والحدث الواحد الجسيم، قد لا يكون « واحدا كالذى نعرفه فى سائر الآحاد عند العد والحساب ، لأنه قد يعدل الألف والألفين ، قد يعدل الملايين بصفاته التى استجمعت صفات جنسه كله ، أو بآثاره التى يخلفها من بعده فإذا هى ثابتة الجذور لا تزول ولا تحول ، ولا وسيلة الى أن يعرف القارىء أوزان الناس والحوادث ، متى ترجع كفتها ومتى تشيل الا أن نهىء له الفرصة فيلاقي هاتيك الحوادث وهؤلاء الناس لقاء مباشرا فى سلسلة الكتب التى نقدمها له : سلسلة « معالم الطريق » .

مقدمة

بقلم

الدكتور زكي نجيب محمود

كثيرا ما يقف الواقع بجسامته وكثافته حائلا دون الانسان وأمانيه ، فيقول الانسان عندئذ : ألا ما أحلى تلك الأمانى لولا هذا الحائل السميكة الصفيق بينى وبين بلوغها ! حتى ينهض من بين الناس رجل ذو عزيمة ماضية ، واردة لا تعرف حيلولة الحوائل دون نفاذها ، فينظر الى الواقع القائم نظرة كأنما هى من نار تذيبه ذوبان الجليد تحت الشمس ، وإذا بالعوائق قد أزيحت ، وإذا بالأمل المرجو قد أصبح هو الحقيقة الواقعة الجديدة - وتلك هى حال غاريبالدى البطل الذى أنشأ إيطاليا الحديثة الموحدة بعد أن كانت ممزقة دويلات دويلات ، وكان ضعاف الهمة ينظرون الى بلدهم ذاك الممزق ، ويحلمون له بالتوحيد ، ولكن أنى للأحلام أن تتحقق !

فمنذ مائة عام تقريبا كانت مملكة بدمونت الواقعة فى أقصى الشمال من شبه الجزيرة الإيطالية - وفيها نشأ غاريبالدى - هى الجزء الوحيد من إيطاليا ، الذى يحكمه ملك إيطالى ، وأما سائر إيطاليا فكان مقسما الى ولايات يحكمها أجانب : النمسا هنا ، وفرنسا هناك ، والبابا فى روما . وكانت قلوب الإيطاليين تهفو الى وحدة سياسية تجمع أشقائهم ، ومن بين هؤلاء كان غاريبالدى ، فما ان سمع - وهو بعد شاب يافع - بأن هنالك رجلا اسمه « متزىنى » يتزعم جماعة أطلقت على نفسها اسم جمعية « إيطاليا الفتاة » حتى ذهب اليه ، وانضم الى جمعيته .

وبدأت الجماعة بثورة أرادوا بها بادئ ذي بدء أن يحولوا ديموننت جمهورية لتكون بعدئذ منطلقا نحو الثورة الشاملة للبلاد كلها ، لكن الجماعة أخفقت فيما أرادت ، فهرب متزيني الى لندن ، وفر غاريبالدى متنكرا فى زى ريفى عابرا جبال الألب ، ثم هاجر الى العالم الجديد ، حيث استقر فى البرازيل حيناً ، ولم يلبث بضعة شهور فى أعمال التجارة هناك ، حتى تحركت نفسه نحو الجهاد فى سبيل الحرية ، كائنة ما كانت الحرية التى يجاهد فى سبيلها ، من ذلك أن « روساس » - حاكم الأرجنتين المستبد - قد سولت له نفسه الطامعة أن يغزو أرجواى ، التى كانت تسكنها جالية كبيرة من الايطاليين الذين جاءوا من بلادهم اما ابتغاء رزق أوسع ، واما فزارا من طغيان سياسى لينعموا بحرية أوفر ، وهامهم أولاء من موطنهم الجديد يفاجئهم طغيان آخر ، فجيشوا من أنفسهم جيشا صغيرا ، واتجهت أنظارهم الى المجاهد الايطالى غاريبالدى أن يأخذ منهم مكان القيادة ، فرحب رجل الجهاد بالجهاد .

لم تكن بين أيدي المحاربين وفرة من مال ، فعمل هذا القائد على أن تنحصر النفقات فى الحد الأدنى ، وكان مما استعان به فى هذا السبيل ، أن ألبس رجاله قمصانا حمرا مصنوعة من الصوف ، كانت قد أعدت من قبل فى مصانع أرجواى لتباع فى الأرجنتين للعمال الذين يعملون فى مذابح الماشية ، فلما أن انقطعت التجارة بين البلدين - أرجواى والأرجنتين - وأصبحت تلك القمصان مضيعة على صانعيها ، اشترتها الحكومة بثمان زهيد وجعلتها أردية للجنود المتطوعين هكذا جاءت القمصان الحمر نتيجة مصادفة ، لكنها أصبحت فيما بعد علامة جنود غاريبالدى حتى بعد أن عاد القائد الى أرض الوطن ليخوض معركة التحرير الكبرى ، وقد جعل غاريبالدى لجيشه المجاهد فى أرجواى علما أسود فى وسطه بركان ، وسئل فى ذلك فقال : انه رمز لايطاليا الحزينة التى تضطرم فى جوفها نار الحرية المقدسة .

وحانت ساعة العودة الى أرض الوطن بعد اثنتى عشرة سنة ، وعاد فى صحبته ستون من لابسى القمصان الحر ، وكان ذلك عام ١٨٤٧ - عاد البطل وأتون الثورة يستعر فى النفوس ، وكان زعماء الثورة يستلهمون الجمهورية الرومانية القديمة فى عهد يوليوس قيصر مثلهم الأعلى لأن الرومان لم يبلغوا فى تاريخهم من العظمة ما بلغوه فى عهد قيصر - ومالبت هذا القائد الساحر أن جمع حوله جموعا كانت ترتقب عودته ، فأينما سار انضم اليه الاتباع ، دون أن يلقي الخطب ، أو أن يغد بالغنائم ، فلا غنيمة الا أن تظفر البلاد بحريتها •

وان قصة كفاحه لتطول ، فلا يفيا حقها منك الا أن تقرأ عنها هذا الكتاب الذى بين يديك ، لترى بعينيك كيف تكون عزمات الأبطال فى كفاحهم من أجل أوطانهم • وعلى أننى لا أستطيع أن أختم هذه المقدمة دون اشارة الى قصة جانبية تهز القلب هزا ، ألا وهى قصة زوجته التى تزوج منها فى أولى أيامه فى البرازيل ، فظلت الى جانبه تعاني وتشقى ، لا تطمئن ولا تستريح الا اذا وجدت نفسها تعين زوجها فى جهاده ، حتى سقطت من الاعياء ميتة وهى تنتظر مولودا بعد قليل •

ألا ما أجدر شبابنا الفتى النهاض ، فى هذه الفترة الخطيرة من تاريخ الأمة العربية التى تنشذ الوحدة بعد تمزق ، كما كانت إيطاليا تنشذ الوحدة منذ مائة عام ، أن يطالعوا هذه الصفحة الرائعة من صفحات الاخلاص والعزم • وان قراء العربية لمدينون الى أديب كبير - هو الأستاذ على أدهم الذى قام بترجمة الكتاب - لمدينون له بأن قدم لهم بقلمه البليغ هذه الصورة الناصعة المشرقة •



الفصل الأول

الربان الشاب

كان اليوم الرابع من شهر يوليو سنة ١٨٠٧ يوما سعيدا في حياة ربان ايطالى فقير وحياة زوجته ؛ فقد ولد لهما فيه ابن ، والأرجح أنهما كانا لايدريان أن يوم ميلاد نجلهما كان يوافق يوم الاحتفال الأول بعد الثلاثين باستقلال الولايات المتحدة ، وهو يوم له دلالة عند محبى الحرية ، وماذا ياترى كان يدور فى خاطرها لو علما أن ابنهما سيحبه الايطاليون فى مقبل الأيام للسبب نفسه الذى أحب له الأمريكيون جورج واشنطن وبالأسلوب نفسه !

ولد جيوسبى غاريبالدى فى نيس ، وهى الآن جزء من فرنسا ، ولكنها كانت قبل ذلك ايطالية ، وقد ضمها نابليون لفرنسا ثم أعيدت الى مملكة بدمونت الايطالية حينما قسم أوروبا الذين تغلبوا على نابليون فى سنة ١٨١٥ تقسيما يلائم رغباتهم . وقد ظلت ايطالية حتى سنة ١٨٦٠ حينما أعطيت لفرنسا فى مقابل موافقتها على ضم ولايتى توسكانيا واميليا ، وكان هذا نفسه مثالا من أمثلة ماحدث فى أجزاء مختلفة من ايطاليا خلال مدة تزيد عن ألف وخمسمائة سنة منذ سقوط الدولة الرومانية .

لذلك لم يكن عجيبا أن سواد الشعب - بعد أن مرت به قرون وهو يعامل فى الحروب وفى دسائس الدول الأجنبية معاملة قطع الشطرنج - لا يفكر أفراده فى أنفسهم باعتبارهم رعايا أمة . وانما كان جل همهم أن يجدوا عملا يمسك عليهم حياتهم ، ويقيم أودهم . وكان هذا من البواعث التى جعلت والد جيوسبى - دومينيكو غاريبالدى - ينتقل منذ ثلاثين سنة من مقر أسرته على مقربة من جنوا الى نيس ، وكان الغاريبالديون دائما قوما من البحارة الأجراء الأشداء . كالأرومة التى أنمت كريستوفر كولمبس .

واسم جيوسبى هو مقابل اسم يوسف فى الايطالية ، وكان اللقب الذى يلحق هذا الاسم عند الايطاليين هو بيبينو أو جو الصغير وبهذا اللقب كان يدعو له لداته فى المدرسة . ولكن مما ساء والديه وخيب أملهم أن جو الصغير لم يكن دائم المثابرة على الذهاب الى المدرسة ، وكان التعليم فى تلك الأيام بعد مرحلة الدراسة الابتدائية يكلف نفقات فى ذلك الجزء من العالم كما هى الحال الآن ، وكان دومينيكو غاريبالدى يحصل على قوته بشق النفس ، فقد كان ربان سفينة صغيرة تجارية فى البحر المتوسط ، وكان يجاهد ليتيح لابنه فرصة للتعليم أكثر مما يستطيع أمثاله ، وتقى به أحواله ، وكان هو وزوجته يأملان أن

جيوسبى سيظل على الشاطئ ويعيش عيشة أكثر طمأنينة من حياة البحار وأعود عليه بالخير ، ولكنهما كانا يقاومان الطبيعة ، فقد ولد بيبينو والبحر فى دمه ، وكان من طالعة أمره مغامرا جريئا لا يقر له قرار ، ولا يهدأ له بال .

كان يهرب من المدرسة كلما استطاع أن يستعير بندقية ؛ لأن الجبال القريبة كانت مكانا صالحا للصيد ، ولم يكن من الميسور إبعاده عن ناحية البحر حيث كان يسترضى الصيادين ليحملوه معهم فى سفنهم ويتركوه يساعد فى نشر القلوع وسحب الشباك .

وتعلم الحركات الرياضية ، وذلك - حسب كلماته - « بتسلق جبال الصارى وترك نفسى منزلقا فوق الجبال، وتعلمت اللعب بالسيف فى الدفاع عن رأسى وبذل أقصى ما أستطيع لتحطيم رؤوس الغير » .

وقد وصف نفسه بأنه من أقوى السباحين فى العالم ، وكان رفقاؤه فى المدرسة يوافقونه على ذلك ، وكان من الحين الى الحين ينقذ ناسا من الغرق ، وكان حسن الصوت مثل الايطاليين الأصلاء ، ويعرف أغانى البحارة والمزارعين جميعها ، كتب عند أحد أصدقائه « حتى وهو غلام كنا جميعا نتجه بأنظارنا اليه ونختاره حكما لنا ، وكان الصغار يعدونه حاميههم الطبيعى » .

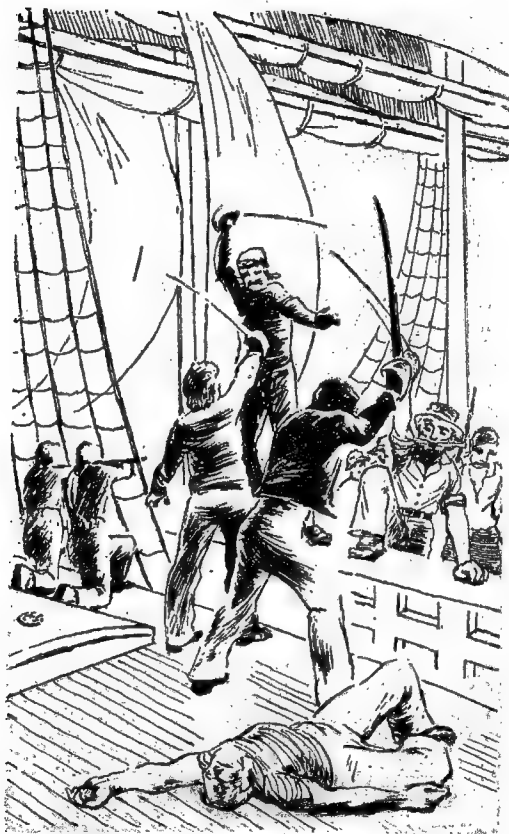
وحينما يصرح الشركان بيبينو يتزعم العصابة ، ولما بلغ الخامسة عشرة من عمره وهو غلام وسيم قوى الأجلاد تنساب خصلة من الشعر الأحمر الذهبى فوق جبينه وضع خطة مع بعض أصدقائه للهرب الى جنوا ليحربوا حظهم بوصفهم بحارة ؛ لأنهم سئموا المدرسة، واستولوا على زورق وحملوا به بعض المؤونة ومعدات الصيد وأبحروا به . وكانوا قد ابتعدوا عن الشاطئ الشرقى بضعة أميال حينما لحق

بهم زورق أرسله والده لاعادتهم الى ديارهم ، وكان أحد القساوسة قد أخبره بهربهم .

وانتهت العقوبة بتسليم الأب غاريبالدی بالواقع الذى لا مناص منه ، فلم يكن هناك فائدة فى حمل بيينو على الاخلاص الى الحياة فوق اليابسة ، ولذلك أرسله أبوه الى البحر ، وبدأ يمارس الخدمة فى إحدى السفن ، وجاهد فى السنوات العشر التالية حتى وصل - وهو فى الخامسة والعشرين من عمره - الى مرتبة ربان سفينة مثل والده . وكانت أول سفينة تولى قيادتها مركبا شراعيا اسمه « كوستانزا » وقد فتن بها ، وكانت للتجار بين نيس وشواطئ البحر المتوسط حتى تغور تركيا والبحر الأسود .

وكانت حياة الملاحين حياة نخسنة حافلة بالأخطار ، فقد كان القراصنة يطوفون بنواحي البحار ، وقد قبضوا على الربان الشاب وسلبوه ما معه ثلاث مرات ، وحف به الاضطراب السياسى من جميع النواحي . ففى ذلك الوقت كانت اليونان تحارب للاستقلال من حكم الأتراك ، وكان الثائرون فى أمم كثيرة متجهين فى هذا الاتجاه نفسه ، ومستعدين للانضمام الى المعركة . ولقى غاريبالدی فى الشرق لأول مرة ايطاليين كان لا يمكن أن يعرفهم لو انه ظل قابعا فى مسقط رأسه ، وكان هؤلاء من المنفيين السياسيين والثائرين الذين وقفوا حياتهم على قضية لم يسمع بها قط من قبل - وهى قضية ايطاليا الديمقراطية المتحدة .

وكانت مملكة بدمونت الواقعة فى أقصى شمال شبه الجزيرة الايطالية وبها نشأ غاريبالدی هى الجزء الوحيد من ايطاليا الذى يحكمه ملك ايطالى ، أما سائر ايطاليا فكان مقسما الى ولايات تحكمها النمسا والبابا ومملكة نابولى ، حكما استبداديا قاسيا ، وكان الأمل الوحيد



قبض القراصنة على الشاب غاريبالدي ثلاث مرات وسلبوه ما معه .

فى تحرير هذه الولايات هو كسر شوكة الحکام المستبدين وجعل
ايطاليا امة واحدة

وما عثم غاريبالدی الشاب أن تعلق بهذه الفكرة وتحدث مع
الشبان الذين أتوا فى نفسه المشاعر الوطنية وأصغى اليهم وسرعان
ما تطوع لمساعدتهم ، وأخبره أحدهم - واسمه كونيو - بأمر رجل
اسمه جيوسبى متزىنى ، وأنه كان أدبيا ووطنيا وثائرا وقد نفى
طوال حياته تقريبا من ايطاليا ، ولكنه كان أقوى مؤثر فى الرجال
الذين عملوا على جعل ايطاليا دولة عصرية حرة ، وكان متزىنى زعيم
جماعة أطلقت على نفسها اسم جمعية « ايطاليا الفتاة » . وكان يعيش
حينذاك فى مرسيليا ، وحينما انتهت الرحلة التى كان يقوم بها
غاريبالدی ذهب لزيارة متزىنى ، وانضم الى جمعية ايطاليا الفتاة وتقرر
اتجاه حياته .

ولم يكن متزىنى مصرا على تحرير ايطاليا وتوحيدها فحسب ،
وانما كان يرمى كذلك الى جعلها جمهورية . ولما كانت جماعة ايطاليا
الفتاة لا تستطيع أن تعمل على بدء الثورة فى الأجزاء التى يحكمها
الأجانب فقد بدأ أعضاؤها يعملون حيثما يستطيعون ، وحاولوا أن
يوجهوا الضربة من أقرب وطن لهم وهو مملكة بدمونت أملين أن
يجعلوها جمهورية .

ففى فبراير سنة ١٨٣٤ جمع متزىنى قوة من المتطوعين من
جنسيات مختلفة وهاجم بدمونت من ناحية سويسرا ، وكان قد أمر
غاريبالدی قبل ذلك بالذهاب الى جنوا والالتحاق بالأسطول
البدمونتى الملكى ، وكان على هذا الشاب الثائر الذى تنقصه التجربة
أن يحاول من الداخل حمل الأسطول على الانضمام الى الثورة ، وكانت
هذه الفكرة حمقاء مثل كثير من الأفكار التى كان يحلم بها متزىنى غير
العمل .

وأخفقت الثورة ، ولم ينضم الى الثائرين الجيش ، ولا الشعب ، ولا الأسطول الملكي . وصدرت أحكام قاسية تدين أعضاء ايطاليا الفتاة ، وهرب متزيني الى لندن وتكر غاريبالدى فى زى فلاح وهرب من جنوا فوق جبال الألب الى فرنسا ، وهناك قرأ فى احدى الجرائد أنه قد حكم عليه بالاعدام متهما بتهمة الخيانة .

ولم يستطع غاريبالدى أن يعود الى وطنه ، وكان هناك كثيرون من الايطاليين السياسيين المنفيين فى مثل موقفه ، وقد رأوا أن يذهبوا الى العالم الجديد ليجدوا سبيلا للحياة ، فأبحر الى البرازيل ، وفى ريو دى جانيرو أنمى صداقة صميمية مع شاب آخر ثائر اسمه روستى ، وشرع الاثنان يشتغلان بالتجارة الساحلية فى احدى السفن الصغيرة ، ولكن تسعة أشهر من ممارسة التجارة الهادئة كانت كافية لغاريبالدى ، فقد ذاق طعم الجهاد الذى كان مقدر له أن يستأثر بحياته - وهو الجهاد من أجل الحرية - وكان جهاد أى انسان لمقاومة الطغيان أو السيطرة الامبراطورية يبدو لغاريبالدى كأنه جهاده الخاص .

وثارت فى ذلك الوقت أمثال هذه الحركات فى أجزاء كثيرة من أوروبا والعالم الجديد ، وكانت البرازيل - قلب الامبراطورية البرتغالية حينذاك - تغلى وتغور، وكان بين ولاياتها المجاهدة للاستقلال الجمهورى ولاية اسمها ريو جراندى دو سول . فذهب غاريبالدى لىخدم هذه الولاية الصغيرة بوصفه قائدا لسفينة صيد مسلحة بها اثنا عشر ملاحا . وقد طاف بشاطئ امبراطورية البرازيل الواسعة مهاجما الشواطئ ، ومعلننا الحرب على طريقة القراصنة .

وقد قال بعض المؤرخين إن غاريبالدى فى ذلك الوقت وفيما بعد لم يكن خيرا من القراصنة المتحمين الفخوريين بمغامراتهم وأفراد حرب العصابات الذين يحملون السيوف على عواتقهم للايجار ، والجواب الحق

عن ذلك هو نزوعه الشديد الى الحرية ومجاهدة الطغيان وعدم احتفاله بالمال والنفوذ الشخصى ، وقد أحب الحرب حبا فى القتال • وأى جندى مطبوع ليس كذلك ؟ وانما كان يجاهد من أجل الحرية ولأجل القضايا التى يؤمن بها ايماناً متحمساً •

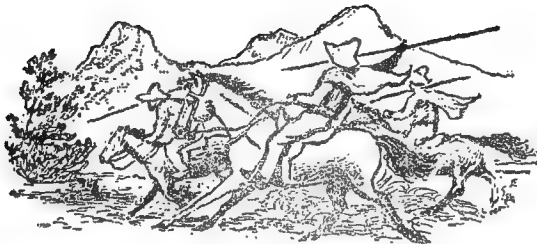
وقد جعلته هجماته وحملاته على الشاطىء يحتك بعصابات من الفرسان الثائرين الذين كانوا يحاربون الجيوش البرازيلية حرب عصابات خاطفة ، وبعد فترة قصيرة كان غازيبالدى يؤجج حرباً بحرية ، فى بعض الأحيان من على ظهر سفينته الصغيرة التى أسماها متزىنى ، وكلما تقدم الزمن كانت أكثر هجماته من فوق ظهر الجواد بين جماعات حرب العصابات ، وسرعان ما أصبح القائد ، شأنه أينما حل ، ولم يكتف بالمشاركة فى أشق الأعمال التى يمكن تصورها ، بل كان يوحى الى رجاله متابعتة فى اقتحام أخطار جديدة •

وكان زملاؤه من رعاة البقر الحشنيين الذين لم تصقلهم الحضارة ، وكانت حياتهم فوق سروج خيولهم وكانوا خليطاً من الاسبانيين والبرتغاليين الهجناء والهنود والزنوج •

وصار غاريبالدى فارساً مقداماً لايبالى الأخطار مثل أحسن فرسانهم ، وقد وصفهم بأنهم أقدر من ركب المطايا فى العالم ، وكانوا من صلابة العود بحيث يستطيعون أن يمضوا أسابيع وهم يطوون المراحل فى البرارى الموحشة ، والمستنقعات الواسعة ، يسوقون أمامهم الماشية التى يتغذون منها • وكانوا حينما يتوقفون لتناول الطعام يذبحون حيواناً من القطيع ويشوون لحمه على السفود الذى يتخذونه من العساليج الحضر ، ولا بد أن مثل هذا اللحم لم يكن لحماً غريضا « طازجاً » ، وانما كان لحماً جافاً غليظاً • ولكن الرجال الذين كانوا يعيشون عليه كانوا أغلظ وأخشن ، وكان غاريبالدى كما سئرى يتذكر دائماً هذه الطريقة فى تغذية المجاهدين •

وكان رعاة البقر هؤلاء شديدي الوطأة في حومة النزال ولا يطاق
لقاؤهم ، ينقضون على الأعداء ويسرعون الى امتطاء جيادهم الفارغة ،
ويحاربون عن قرب بالرماح أو السيوف وفي بعض الأحيان كانوا
يستعملون الأناشيطة كأنهم كانوا يصطادون النعام أو يسوقون أمامهم
قطيعا من الحيوان ، وكانوا جد قريبين من الوحشية ، ولذلك مما
يسترعى النظر أن غاريبالدى الذى شاركهم فى حياتهم وأساليبهم
العنيفة ظل مع ذلك محتفظا بأخلاقه الرضية ، وفطرته الرقيقة .

وقد ظل طوال حياته وفيما لأصدقائه شديد التعلق بكل من
أحبهم ، فهو يحرص عليهم ويصفىهم الود ، ولذلك حزن حزنا شديدا
حينما هلك زملاؤه الايطاليون فى الحرب وغرق السفن ولم يجد حوله
من يملأ مكانهم ولا من يمت اليه بصلة ، كان رجلا وحيدا .



الفصل الثاني

أنيتا والمنفى .

كان غاريبالدى قد ظل يجاهد فى البرازيل حوالى ثلاثة أعوام حينما غرقت سفينته على شواطئ سانتا كاترينا ، وهى المقاطعة الواقعة شمال ريو جراندى دو سول ، وكانت سانتا كاترينا كذلك فى ثورة على امبراطورية البرازيل ، وكانت معركة ناشبة للاستيلاء على مدينة لاجونا ، وقد بادر الى الاشتراك فيها قائد القراصنة وشياطينه المقاحيم الذين كانوا يحاربون فى البر والبحر ، وسقطت لاجونا فى يد الثائرين ، ورحب سكانها الجمهوريون بغاريبالدى وعدوه محررهم ، وأقاموه أميرا على الجزء الصغير من الأسطول الامبراطورى الذى استولوا عليه ، وجعل مقر قيادته فى السفينة ذات الشراعين ايتاباريكا .

وقد قتل في المعركة كثيرون من أعز أصدقائه الايطاليين عليه ، أمام عينيه ، فشاب حزنه على فقدهم فرحته بالنصر ، وبينما كان يتمشى على ظهر السفينة واجما مهموما وهو يفكر في مصرع هؤلاء الأصدقاء شرع يلقي نظرات على الشاطئ من مقربه (التلسكوب) فأبصر على تل بارا المرتفع شابة أثر في نفسه جمالها ، برغم أنه كان يراها من مسافة بعيدة ، وفي التو واللحظة أصدر أمرا بانزال الزورق ، وأخذ هو نفسه يجذف قاصدا الشاطئ .

وذهب غاريبالدى دون أن يلوى على شيء الى المكان الذى رأى فيه الفتاة الحسنة ، وقد لمحت الفتاة الربان الوسيم وهو قادم الى الشاطئ . وأخذت تراقبه . ومن المؤكد أنها كانت تعرف من هو ، لأن اسمه كان دائما في تلك الشواطئ مقرونا بأخبار مغامراته ، وقد حارب من أجل حرية بلاده . وسرعان ماتم التعارف بينه وبين التاجر ريبيراس الذى دعا البطل الى زيارة بيته ، وكانت الفتاة التى أحضرت القهوة — القهوة رمز الاكرام البرازيلى — هى نفسها الفتاة التى جاء غاريبالدى باحثا عنها ، لقد كانت أنيتا ابنة ريبيراس البالغة من العمر الثامنة عشرة ، حسناء رشيقة ، صبيحة الوجه ، لها عينان سوداوان ، وشعر فاحم ، وقوام ممشوق فارح كقوام نساء الأمازون المحاربات اللواتى كانهن ولدن فوق سروج الخيل ، ولم تكن الفتيات الأوروبيات من هذا الطراز ، ولا يبدو فى عيونهن الاقدام المصمم الذى رآه غاريبالدى فى عينيها . قال غاريبالدى فى ذكرياته عن هذا اللقاء : « لقد ظللنا كلانا مأخوذين صامتين ، ينظر كل منا الى الآخر مثل انسانين لم يكن هذا أول لقاء بينهما . . . »



كانت الفتاة التي أحضرت القهوة هي نفسها الفتاة التي جاء غاريبالدي باحثاً عنها •

لقد رأيت رجلا قد طارت شهرته بوصفه البطل في جهاد بلادها لنيل الحرية ، رجلا له رأس فخم ، وشعر ذهبي ، ولحية وعينان زرقاوان عميقان ، فوقفت كالسحورة . وكانت أولى الكلمات التي سمعتها قوله في صوته الحفيض الرخيم : « ينبغي أن تكوني لي » . وكان يتحدث بالاطالية لأنه كان قليل المعرفة باللغة البرتغالية ، ولكنها أدركت من نبرات صوته وحدها - كما كتب بعد ذلك - « أنه قد قطع على نفسه عهدا وأصدر حكما لا يستطيع نقضه سوى الموت » .

وتحول حسن ضيافة ريبراس الى عدااء وخصومة ، فقد ساءت له جرأة غاريبالدى وصراحته المكشوفة ، وكان قد وعد رجلا آخر بالزواج من أنيتا جريا على الطريقة اللاتينية المعهودة ، ولم تكن أنيتا تحب هذا الرجل ، ورفض أبوها أن يحلها مما ارتبط به ، ولكنها كانت مطبوعة على الجهاد نزاعة الى الاستقلال مثل غاريبالدى نفسه ، ولذلك آثرت المسلك الوحيد الملائم لطبيعتها ، فهربت من أبيها ومن اخوتها الذين أمروا بحبسها في حجرة مغلقة بعد ليال قلائل وانتظرت على الشاطئ ، وجاء غريبالدى الى الشاطئ وحملها الى السفينة تحت حماية المدافع ، ولم يحدث من قبل مثل هذا الهرب الرومانسى ؛ فقد شاركته في مصيره - لا بوصفها زوجته فحسب ، بل كذلك بوصفها رفيقا في حمل السلاح والجهاد - ومن ذلك الحين ظلت الى جانبه في البر والبحر ، وكما قال عنها : « لا تقل عني تجسسا لقضايا الأمم المقدسة وحياة الاقدام والمخاطرة » .

ونستطيع أن نفهم الكثير عن غاريبالدى من هذه الكلمات ، ونستطيع أن نتحقق من أنه ان لم يكن قد ألهم بإخلاص ايمانه بالحرية وميل الانسان الى المحاربة من أجلها ، فانه كان يصبح في الحقيقة من القراصنة المقادير .

وبدا شهر العسل لغاريبالدى مع أنيتا بمعركة ضربت فيها سفن الأسطول الامبراطورى سفينة غاريبالدى بالمدافع من مرمى قريب، وسقطت قنبلة مدفع على مقربة من أنيتا فأصابته وأكبتها فاقدة الوعي فوق كومة من جثث القتلى ، وحينما اقترب منها غاريبالدى نهضت واقفة واستأنفت الجهاد . وكانت تحارب كأحد الرجال؛ فتحشو السلاح وتطلق النيران من المدافع مصوبة نحو الهدف ، ولما هبطوا الشباطىء لشن الغارات كان مجال الحرب أمامها أكثر اتساعا وأشد ملاءمة لها ، فقد كانت تجيد ركوب الخيل كأبرع الفرسان من رعاة البقر ، وكانت طوال حياتها تمتطى الجياد الأرنة السوابح ، وتبأشر الصيد والمطاردة واطلاق الرصاص ، وكانت دائما الى جانب زوجها ورجاله ، وفى بعض الأحيان كانت تقودهم فى المعركة ، وظلت مع ذلك امرأة رقيقة حسنة لا يعادل شجاعته سوى حبها لغاريبالدى ، ولم يكن أى خطر - بالغا ما بلغ - يستطيع أن يبعدها عن جانبها .

وحوالى هذا الوقت تحول تيار الحظ عن الثوار ، وعانى رجال غاريبالدى الهزيمة فى معركة برية وأسرت الجيوش الامبراطورية أنيتا واعتقدت أن غاريبالدى قد قتل فى المعركة وظلّت أن يؤذن لها بالبحث عنه ، وتصور هذه العروس الحسناء الشابة تشق طريقها بين أكداس الجثث ، وتقلب بقايا القتلى ناضرة فى كل وجه متوقعة - وقد اجتواها الجزع - أن تجد وجه زوجها ، ولكنه لم يكن هنالك فقد لاذ بالفرار ، وهى كذلك ستلحق به .

وتسللت من حراسها واختفت فى الأدغال ، وهناك حصلت على جواد غمر من أحد المزارعين ، وانطلقت به وحدها ، وطوت مسافة تبلغ ستين ميلا فى إحدى الغابات الاستوائية ، وفى صحراء مجهولة المعالم ، ولم تحمل معها طعاما ، ولم تتوقف لالتماس الراحة . وخاضت أنهارا زاهرة طامحة العباب مستمسكة بجوادها ، ولم تلو على شئ والقوم الذين شاهدوها وهى تعدو على جوادها كالبرق الخاطف

خالوها من اناث الشياطين ، وبعد أربعة أيام وصلت الى مدينة آمنة ، وهناك لقيها زوجها .

وكانت لا تزال أمامهما أخطار ، ولكن أنيتا قابلتها بقوة امرأة من نساء الأمازون وشجاعتها ، ولم يصدق هذا الوصف قط على امرأة كما صدق عليها ، وقد وضعت طفلها الأول فى البداء التى كانت هى وحيوسسبى يطوفان فى أرجائها . وقد أخفقت ثورة ريو جراندى وأصبح الغاريبالديون لاجئين تطاردهم الجيوش الامبراطورية ، وقد أسما ولدهما باسم مينوتى . وقد جاريا فى هذه التسمية نزعتهما فى الخروج على العرف التى كانت من مميزاتها ؛ فالطفل الرومانى الكاثولىكى يسمى عادة باسم قديس من القديسين . ولكن الغاريبالدين أسما طفلهما باسم شيرو مينوتى وهو اسم بطل ايطالى شاب قتل فى ثورة سنة ١٨٣١ .

ولما بلغ عمر الطفل اثنى عشر يوما كان على الأسرة أن تهزب طلبا للنجاة بحياتها ، فقد كان العدو قد اقترب من الاطباق عليها ، وظلت الأسرة مدة ثلاثة أشهر وهى تتجول فى غابات الأمازون متحرية البقاء فى حدود الأدغال المتأبنة ؛ فقد كانت هذه هى الطريقة التى لا مناص من اتباعها للاختباء من الجيوش البرازيلية التى أخذت الثورة وأخذت فى مطاردة فلول الثائرين . وكانت أنيتا تحمل طفلها فى السرج ، وحينما كانا يضطران الى خوض أحد مسایل المياه كان والده يعلقه بمنديل فى عنقه ويحاول أن يظل الطفل ينعم بالدقة فوق صدره ، وكان بقاء الطفل على قيد الحياة من المعجزات .

وشنقا طريقهما جنوبا الى جمهورية أرجواى ، ورأى غاريبالدى أنه لن يستطيع مواصلة هذه الحياة الشاردة ومعـه زوجة وطفل ، ولذلك عقد العزم من أجلهما على الاستقرار فى مونتفيدو عاصمة

أرجواى ، وهناك حاول أن يعمل الشيء الوحيد الذى لم يكن يصلح له ولا يحسنه - وهو أن يكون انسانا عاديا من رجال الأعمال الذين يؤثرون السلامة - ولكنه أخفق فى ذلك .

لم ينجح فى هذه المحاولة ؛ فقد أراد أن يكون دلالا للسفن وأن يعمل مدرسا للرياضة ، وحاول أن يكون مهندسا ولم يوفق فى كل هذه المحاولات ، واستولى عليه السأم ، وحدث حينذاك شيء أتاح له فرصة استرداد نفسه .

فبحر الجنوب عبر نهر ريو دى لابلاتا من اقليم أرجواى الصغير كانت تمتد بلاد الأرجنتين التى كان يحكمها حاكم بأمره اسمه روساس وفجأة غزا روساس أرجواى قاصدا أن يبتلعها ، ففرع أهل أرجواى الى الملاح الذى يعيش بينهم ، وسأله المساعدة فى تنظيم أسطول وإعداده للحرب .

وكانت الخطوة الثانية من تفكير غاريبالدى ، وثبت أنها كانت خطوة جد هامة ، فقد كانت هناك جالية كبيرة من الايطاليين الذين يعيشون فى مونتفيديو ، وكان الكثيرون منهم منفيين من ايطاليا لمثل الأسباب التى نفى من أجلها غاريبالدى ، فحرض هؤلاء الرجال على أن يكونوا فرقة وأن يكون هو قائدها ليحاربوا دفاعا عن أرجواى، فسارع الايطاليون الى التطوع ، وخاربوا مستبسلين الى حد أن روساس عجز عن دخول مونتفيديو ، وبعض هذه الفرقة جعله يحاصر المدينة مدة سنوات حصارا غير مجد ، وغيرهم كانوا يصطادون جيوشه فى البرارى المقفرة ويهزمون فى المعركة الجنود المدربين الذين كانوا يفوقونهم عددا ، وكانوا يستعملون طريقة الفرسان من رعاة البقر الذين تجمعوا حول غاريبالدى ليحاربوا معه .

وكان أعضاء الفرقة الإيطالية مدنيين يحاربون من أجل حرية البلاد التى آوتهم ، وكانوا لا يتقاضون أجرا ، وكان رداؤهم القميص الأحمر الذى اشتهر بعد ذلك وصار له شأن ، وقد كان اتخاذ القمصان الأحمر من قبيل المصادفة ، فقد أصر غاريبالدى على تجهيز رجاله بأقل ما يمكن من النفقات ، وكان فى أحد مخازن مونتفيديو مجموعة كبيرة من القمصان المصنوعة من الصوف الأحمر وقد أعدت لبيعها فى الأرجنتين للعمال الذين هم فى مذابح الماشية التى كانت حينذاك كما هى الآن المهن الرئيسية هنالك ، ومن شأن القمصان الأحمر أن تخفى العمل الدموى الذى يقوم به العمال وهم يرتدونها . ولكن بعد نشوب الحرب توقفت التجارة مع الأرجنتين ولذلك اشترت حكومة أرجواى مجموعة القمصان برمتها بثمن زهيد وجهزت بها الفرقة الإيطالية .

وكانت القمصان الأحمر فضفاضة ، ولهذا السبب وحرصا على حرية الحركة كان غاريبالدى ورجاله يلبسونها غير محكمة ولا مشدودة فوق سراويلهم ، وكانوا يضعون فوق رعوسهم «البندق» المشهور الذى اقتبس غاريبالدى من رعاة البقر ، وكانوا يستعملونه عباءة ودثارا ، وكان يصنع من الصوف الكثيف الشبيه باللباد ، وكان لونه رماديا يميل الى البياض .

وسرعان ما ذاعت شهرة القمصان الأحمر كما كانت تسمى الفرقة الإيطالية، وعبرت هذه الشهرة المحيط الى إيطاليا وصارت فخرا ومناط أمل للوطنيين الذين كانوا يعملون فى الخفاء وينتظرون اللحظة المناسبة ليضربوا ضربتهم من أجل الحرية . وكان غاريبالدى يتحنن الفرص ، وقد تجاوز مرحلة الشباب ، وأصبحت عليه تبعات ، فله زوجة معجبة به لا تشكو تعباً ولا فقراً ، وثلاثة أطفال ، فبعد مئوتى ولدت له تيريسيتا ، وولد آخر أسماه ريكشيووتى وهو اسم أحد الوطنيين الشجعان الذين قتلوا فى ثورة غير ناجحة اشتمعت فى نابولى سنة ١٨٤٤ .

والواقع أنه لم تكن هناك ضرورة في أن يظل غاريبالدی وأسرته معدمين ، وكان يستطيع الحصول على المال ، ولكنه كان لا يسعى اليه ، وهو لا يستطيع كسب المال بمباشرة المهن السلمية ، ولا يقبله حينما تمنحه له الحكومات لقاء جهاده وبلائه في الدفاع عن حوزتها ، ولما رأى الوطنيون الأرجوايون غاريبالدی يرتدى الثياب الخلقية وأسرته تعوزها الضروريات مثل الشمع أرغموه على قبول مبلغ متواضع (قرابة ١٢٥ من الدولارات أى نحو ستين جنيها) من وزارة الدفاع ، وكان هذا المبلغ هو كل ما قدم لغاريبالدی ، وقد تصدق بنصفه لأرملة قال انها أحوج اليه منه .

ومثل هذا الرجل الذى كان يلبس كرجال فرقته بلا أدنى تمييز ، والذى كان جميع سكان مونتفيديو أصدقاء له كان معبودا للرجال الذين كانوا يحاربون تحت رايته ، وقد كان شديدا لا يرحم في ساحة الحرب ، حريصا على مراعاة النظام في الميدان وتحت النيران ، ولكن كان في غير ذلك أكثر الناس بساطة وأرقهم حاشية ، وكانت له موهبة تتجاوز المألوف على أن يثبت في رجاله وأتباعه ليس فقط شجاعته بل التعلق بمثله العليا كذلك .

وكان يخوض الحرب في أرجواى وعيناه متجهتان الى بلاده الحبيبة ايطاليا ، وكان على اتصال بزملائه هناك ، وضع متزينا في لندن ، وكان يعلم وهو بعيد عن ايطاليا في برارى جنوب أمريكا وقفاؤها أن الثورة كانت تتحرك تحت قبضات الذين خنقوا الحرية في الأجزاء المتناثرة من ايطاليا ، وكانت ايطاليا في دورها ترقب الحرب التى يقوم بها القمصان الحمر في العالم الجديد ، وكان هؤلاء الايطاليون يحاربون كالشياطين من أجل الحرية ومن أجل حبهم لقائدهم الشجاع . وقاد غاريبالدی الفرقة الايطالية الى المعركة حاملا علما أسود في وسطه بركان ، وحسب كلماته كان هذا رمزا لايطاليا الحزينة التى تشتعل في قلبها النيران المقدسة .



الفصل الثالث

غاريبالدی والقمصان الحمر

الخريطة بصفحة ٢٨ والخريطة بصفحة ٢٩ تظهران لك المشكلة التي واجهت الوطنيين الذين وقفوا حياتهم على مثل أعلى هو إيطاليا الحرة المتحدة ؛ فمنذ عهد الرومان ، ومنذ عهد غزوات البرابرة ، ومن العصور المظلمة وعهد الاحياء ، ومنذ عهد الحروب النابليونية ، ورثت إيطاليا الانقسام والاحتلال الأجنبي اللذين جعلوا الحذاء الإيطالي صورة مقسمة الى أجزاء غير متساوية متغيرة ، وجعلوا حال أهلها مع حكاهم أحسن قليلا من حال الأسرى والسجناء .

فأولا فى الجزء الشمالى الغربى من أعلى الحذاء ترى مملكة بدمونت المتاخمة لفرنسا وسويسرا وجزيرة سردينيا الكبيرة التى كانت جزءا منها ، وكانت عاصمة هذه المملكة تورينو وحاكمها شارل ألبرت من سافوى ، وهو الملك الذى نفى غاريبالدى سنة ١٨٣٤ • وكانت هذه المملكة هى الدولة الوحيدة الايطالية الحقيقية التى قدر لها أن تمتد أطرافها بارادة الشعب نفسه حتى تصبح ايطاليا الحديثة •

وفى شرقى بدمونت المقاطعتان الايطالتان الجميلتان الغنيتان لمباردى وفينيتيا ، وهما تمتدان من ميلان الى فينيسيا ، ومنذ سقوط نابليون فى سنة ١٨١٥ كان هذا الجزء من ايطاليا كله قد ابتلعتة الامبراطورية النمساوية ، وقبل ذلك كان نابليون قد أخضعه ، وقبل عهد نابليون اقتطعته والتمته اسبانيا والنمسا وفرنسا وكل غاز حاول بسط سيطرته على أوروبا •

وفى جنوب لمباردى وغربها ثلاث دوقيات ، كانت من الوجهة النظرية مستقلة ، ولكنها فى الواقع كانت مرتبطة ارتباطا وثيقا بشبكة النمسا الحديدية ، وكان الذى يدخلها فى نسج هذه الشبكة الضلعف والخوف وسياسة أسرة الهابسبرج العائلية ، وهى تزويج بناتها وأبنائها لرؤساء الحكومات التى تريد الأسرة أن تحكمها ، وكانت هذه الدوقيات هى بارما ومودينا ولوكا •

ويتلو ذلك أرشبلوقية توسكانيا وعاصمتها الزاهرة فلورنسا ، وكان حاكم هذه المقاطعة الفراندوق ليوبولد الثانى الذى كان كذلك فرعا من الدوحة الهابسبرجية ، وكانت توسكانيا كذلك فى الواقع من أملاك النمسا •

وأخيرا تجيء أعجب أجزاء ايطاليا جميعها ، وهى الولايات الأربع التى اشتملت على ولايات البابا ، وكانت هذه الولايات هى رومانيا

ومارشيز وأومبريا وروما نفسها ، وقد يبدو لنا جيد عجيب أن الكنيسة يمكن أن تكون دولة سياسية يحكمها البابا كأنه قد نصب ملكا ، ولكن الحالة كانت كذلك منذ عهد العصور المظلمة التي جاءت في أعقاب انهيار الامبراطورية الرومانية ، وقد ترك سقوط الدولة الرومانية فراغا ، وكانت القوة الوحيدة المنظمة التي تستطيع أن تملأ هذا الفراغ هي الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، وكان حكمها فظا قاسيا ، وكانت الشرطة تعنف بأهل هذه الولايات وترهقهم الضرائب ويرين عليهم الجهل .

وكان الجزء الباقي من ايطاليا يكابد مثل هذه الأحوال السيئة فالنصف الجنوبي من الحذاء وهو يشمل جزيرة صقلية عند أصابع القدم كان يسمى مملكة نابولي ، وكان يحكمه فرع من أسرة البوربون من أصل فرنسي واسباني وكان اسمه مثل أسرة الهابسبرج مرادفا للملكية المطلقة والاستبداد السياسي، وكان الجالس على العرش حينذاك فرديناند الثاني الذي كان يطلق عليه رعاياه لقب « الملك بومبا » ، لأنه قتل أهل مسينا جميعهم بضربها بالمدافع حينما ثارت به المدينة .

وكان يزيد هذه الصورة المظلمة لوطن مقطع الأوصال راسف في الاغلال سواء الطغيان الذي فرض احتماله على سكان مختلف الولايات، ولم يكن هناك فرق يذكر بين حكم النمسا وحكم البابا أو حكم الملك بومبا ، فانه لم يكن لهم مجلس نيابي ولا حقوق سياسة ولا تصويت للانتخاب ، وكانوا يعيشون في رعب من الجواسيس وكانوا يعتقلون بغير أمر قانوني بالاعتقال ويحبسون دون أن يستمع لهم ويعدهمون دون محاكمة ، وقليل من الفلاحين كانوا يملكون الأرض ، وكانوا جميعا يعملون كالعبيد عند النبلاء الأثرياء الذين كانوا يملكون الأرض .

وكان المتعلمون في المدن الكبيرة هم الذين تلهب في نفوسهم الثورة الحفية على هذه الأحوال المستفظة في الولايات التي يعيشون

إيطاليا

المقياس ٠ ٢٥ ٥٠ ٧٥ ١٠٠ أميال

أمالك النمسا

ضمّت لباردي إلى إيطاليا عام ١٨٥٩

ضمّت فينتيا إلى إيطاليا عام ١٨٦٦

تحت سيطرة النمسا

بارما { إلى إيطاليا عام ١٨٦٠ (أمليا) مودينا

ضمّت توسكانيا إلى إيطاليا عام ١٨٦٠

ولايات البابا

رومانيا

امبريا

مرشيز

ضمّت روما إلى إيطاليا عام ١٨٧٠

ضمّت مملكة نابولي وصقلية إلى

إيطاليا عام ١٨٦٠

نيس { ضمّت إلى فرنسا عام ١٨٦٠

سافوي { وكانت تبع بد مونت



بها ، وكانوا محامين وأطباء وأساتذة جامعات وكتابا وأصحاب فن ،
وأقسم أهل ميلانو وفينيتيا على تحرير بلادهم من نير النمساويين ،
وأقسم أهل بولونيا على تخليص أنفسهم من سلطة البابا ، وأقسم أهل
نابولي وصقلية على نبذ طاعة الملك بومبا ، وواجهوا الاضطهاد بشجاعة
واباء ، واحتملوا العقوبات الوحشية ، ولم يجدوا من مواطنيهم ظهيرا
يشد أزرقهم ؛ فقد كان كبار الملاك وأصحاب المناصب السياسية السامية
يريدون أن تبقى الأحوال على ما هي عليه ، وكان الفلاحون أخوف
وأجمل وأكثر تعلقا بالخرافات من أن يعلنوا المعارضة أو يشقوا عصا
الطاعة وكان رجال الأعمال وطلبة الجامعات فى المدن هم السند الوحيد
للوطنيين •

وهؤلاء الرجال لم يملكو حتى القوة التى كان يمكن أن تستمد
من اتحادهم التام بعضهم مع بعض ؛ فلقد كانوا من ولايات مختلفة ،
وكانت أفكارهم عن إيطاليا التى يريدون خلقها مختلفة ، وكان تفكيرهم
فى السبل التى يسلكونها لتحقيق هذا الهدف متباينا ، ولكنهم مع
ذلك كانوا يحافظون على اتصال بعضهم ببعض وعلى الاتصال بمتزىنى
فى لندن ، وكانوا جميعا قد ترامت الى أسماعهم أخبار جماعة القمصان
الحمر الذين كانوا يحاربون فى شجاعة بأرجواى وأخبار قائدهم ، وكان
كل وطنى فى إيطاليا ينظر الى غاريبالدی بعين الحب والعطف والاعتزاز ،
وكان اسمه الوحيد الذى يوحى اليهم جميعا •

وفى أثناء ذلك كانت هناك قوة خارجية عاملة ، وقد عجلت هذه
القوة العاملة بالسناعة التى تستعر فيها الثورة فى إيطاليا ، وكان ذلك
سنة ١٨٤٧ ، فقد سرت الثورة فى أوروبا جميعا سريان النار فى الحطب
الجزل وهبت جموع غفيرة من الناس تطالب بحقوقها فى الحكم النيابى ،
وكانوا يريدون مجالس نيابية يختارون أعضاها وقوانين تحد من
سلطة ملوكهم وأباطرتهم المطلقة ، وقد شملت الاضطرابات والانتفاضات

فرنسا وممالك ألمانيا الصغرى وولاياتها وامبراطورية النمسا الشاسعة التى كانت خليطا من القوميات ، واهتزت عروش وهرب حكام ملكيون ، ثم أخذ الحكام الملوك يستردون عروشهم مع تغيير للجالس على العرش فى الأغلب ومع شروط أرغمت الشعوب على قبولها تمنح الرعايا الدستور وحق الانتخاب .

وبطبيعة الحال اغتنمت الأملاك التابعة للامبراطورية النمساوية الفرصة لتعلن الثورة ، فثارت ميلانو بحاكمها النمساوى المكروه ، وبعد حرب شعواء استمرت خمسة أيام فى الشوارع طرد من المدينة ، وثارت فينيسيا وأعلنت أنها جمهورية ، ولم تأت سنة ١٨٤٨ حتى كانت إيطاليا جميعها تغلى وتنفور بالثورة ، واعتزل امبراطور النمسا العرش . وخلفه الشاب فرنسيس يوسف الذى عاش ليرى قرب نهاية امبراطورية النمسا والمجر سنة ١٩١٦ .

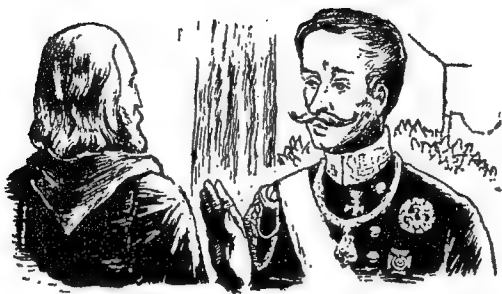
وخاف حكام إيطاليا الحقيقيون والصوريون ، وأدركوا أن خير وسيلة للمحافظة على عروشهم هي أن يمنحوا رعيتهم الدستور قبل أن يثوروا بهم ويحاربوهم ، وحتى يدمونت التى كانت أكثر الولايات الايطالية استنارة لم يكن لأهلها حتى ذلك الوقت حقوق مدنية ، ولذلك أصبح الملك شارل ألبرت ملكا من الملوك الأحرار بدلا من أن يكون حاكما مطلقا ، واتجه الفرانديق ليوبولد فى توسكانيا الاتجاه نفسه فى حذر واحتياط وحتى الملك بومبا فى نابولى وجد نفسه مضطرا الى منح بعض الامتيازات ، ولكن أشد الأمور جميعا اثارة للتعجب هي أن البابا الجديد فى روما بيوس التاسع (الذى يسميه الايطاليون دائما بيونونو) بدأ عهده بعمل اصلاحات جذرية حقيقية فى طريقة الحكم الكرية التى أوسعت الولايات البابوية ظلما وعسفا .

وكانت أولى الحركات الثورية فى سنة ١٨٤٧ كافية لاثارة غاريبالدنى وهو بعيد فى الجانب الآخر من العالم ، وكان متزينا وغيره

يوافونه بكل ما هو حادث ، وقد بدأ الايطاليون أخيرا يحاربون من أجل حريتهم ، وكان مكان غاريبالدى فى طليعة هذه الحرب ، وقد ظل يحلم بهذه الساعة اثنى عشرة سنة ، والآن وقد حانت هذه الساعة فانه لم يتوان عن أن يبت فى الأمر ، وشاركه فى هذا البت ستون من رجاله لابسى القمصان الحمر ، وأجمعوا أمرهم على الذهاب جماعة والانضمام الى صفوف المحاربين أينما كانت الحرب .

وقرر يبينو - وقد ظل هذا الاسم الذى تدعو به أنيتا زوجها - أن تذهب أنيتا وأطفالها الى نيس وقيمون هناك فى مأمن مع والدته قبل رحيله ، وفى باكورة سنة ١٨٤٨ نزلت الى البر فى جنوا ومعها الأطفال ، وهناك لم تجد أن حكم الاعدام السابق صدوره على زوجها قد ألقى فحسب بل وجلت جماعة من الناس يقابلونها بالهتاف « ليحيى غاريبالدى وأسرة غاريبالدى ! » .

وأبحر القائد نفسه ومعه فرقة القمصان الحمر فى ابريل فى سفينة صغيرة اسمها « سيرانزا » وهى كلمة معناها الأمل ، وكان لهذه الكلمة معنى عميق فى نفوس الرجال الأبطال على ظهر السفينة ؛ لأنهم جميعا كانوا عائدین الى بلادهم معرضين حياتهم للخطر من أجل حرية وطنهم ، وكثيرون منهم استشهدوا فى سبيل هذه القضية ، وواحد منهم عاش ليحارب فى شجاعة مرة بعد أخرى وهو النقيب الشاب مديتشى الذى كان يحبه غاريبالدى بوجه خاص وكان هذا الشاب لغاريبالدى ذراعه اليمنى الذى لا يعتريه الكلال ، وشخص آخر هو الزنجى العملاق البرازيلى المدعو أجيوار ، وفى كل مساء والشمس مائلة للغروب كانت جماعة الايطاليين المقادیم فى قمصانهم الحمر تتحلق فى ظهر السفينة حول الزعيم وتصلى صلاة المساء متغنية بنشيد وطنى ، ولم يكن هناك صوت يعلو على أمواج البحر أعذب نغما وأجمل فى النفوس وقعا من صوت القائد الذى وصل حبههم له الى حد العبادة والتقدیس .



الفصل الرابع

إرهاصات الثورة

منذ مائة سنة كانت الأخبار تتنقل فى بطء ، فغاريبالدى لم يكن يعرف حينما ركب البحر من أمريكا الجنوبية أن ميلانو قد ثارت منذ أربعة أسابيع لتسترد حريتها من النمسا ، ولكن حينما وصلت السفينة سبرانزا الى اسبانيا - وهى أول جزء من أوروبا - طالعها علم من بها أن إيطاليا ثائرة على سادتها ، وهذه الثورة على النمسا فى الشمال جعلت المتطوعين يأتون من كل فج فى شبه الجزيرة الإيطالية لينضموا الى المجاهدين لمحاربة النمسا .

وكان ملك بدمونت شارل ألبرت قد تحرك على رأس جيشه المدرب ليساعد على اجلاء النمساويين عن لمباردى ، وهو لم ير نفسه المخلص فحسب لهذا الجزء من إيطاليا ، وانما رأى نفسه ملكه المنتظر .

ومهما يكن من الأمر فإن اللومباردين أنفسهم وغيرهم من الايطاليين لم يكونوا بحال على اتفاق معه فى ذلك ، فانهم بالاضافة الى خلافاتهم الصغيرة المتنوعة كانوا منقسمين الى حزبين كبيرين ؛ حزب الذين يريدون أن تكون ايطاليا مملكة واحدة متحدة منضمة الى بدمونت وحزب الآخرين الذين كانوا يريدون مثل متزىنى أن تكون ايطاليا جمهورية مكونة من اتحاد فيدرالى بين الولايات الايطالية .

ولم تكن هذه قاعدة تصلح لتبدأ منها معركة ناجحة لهزيمة النمساويين ، ولو كان الايطاليون قد اتحدوا ووجدوا صفوفهم فرما كانوا قد استطاعوا فى ذلك الوقت أن يظفروا بمزايا ويتخلصوا الى الأبد من النمسا التى تسومهم الهوان فقد كانت أحوالها مختلفة وأمورها فوضى ، ولكن لم يكن الوقت قد حان لذلك بعد ، وفقد شارل ألبرت قوة المبادأة التى قام بها أهل ميلانو الشجعان ، وثبت النمساويون أقدامهم فى الحصون الأربعة المسيطرة على ممر برنر الجبلى الواقع بين ايطاليا والنمسا ، ولم يكن شارل ألبرت موفقا فى حركاته .

وقدم غاريبالدى حينذاك ليثبت وطنيته وقيم الدليل على أنه جندى باسل ورجل عمل لا رجل كلام ، ولم يكن يرمى الى تحقيق مطامع شخصية لنفسه ، وانما كان يريد قبل كل شئ أن تصبح ايطاليا حرة متحدة ، وقد تعلم من متزىنى أنه عندما يتحقق ذلك فانه يجب أن تكون ايطاليا جمهورية ، ولكن غاريبالدى - على خلاف متزىنى - لم يضع فكرة صورة معينة سياسية لبلاده فوق مطلبه الأول والمقدم وهو أن تكون ايطاليا جميعها حرة . وكان على أتم استعداد ليضحى بحياته فى أى حرب من أجل حصول ايطاليا على حريتها .

ولذلك ذهب الى الملك شارل ألبرت فى معسكره وقدم له نفسه وفرقته من لابسى القمصان الحمر التى اشتهرت فى محاربة النمسا ،

ولكن الملك الأحقق الذى كانت تخطر له فى بعض الأوقات أفكار حسنة رفض خدمة غاريبالدى وظن أنه يكفى العفو عن الرجل الذى حكم عليه بالاعدام بتهمة الخيانة .

وكانت الثورة على النمسا فى طريقها الى الحمود والركود لأنها كانت تنقصها القيادة الموجهة ويعوزها اتحاد الصفوف ، وتحول غاريبالدى وقد نبذ الملك الى أهل ميلانو وتطوع للحرب فى صفوفهم فعهدوا اليه بالقيادة ، ولم يكن لذلك أهمية تذكر سوى أن لقب القائد لزمه بعد ذلك ، ورخصوا له فى أن يضم المتطوعين ويطارده النمساويين فى الشمال الى البحيرات ومدينة برجامو ، ولكن قبل أن يبدأ غاريبالدى عمله الحقيقى كان جيش شارل ألبرت قد هزم فى معركة كاستوزا ، ولم تمض أسابيع حتى اضطر الى التقهقر الى ميلانو التى كانت قد حررت نفسها بدون مساعدته .

وبطبيعة الحال كان أهل ميلانو حائقين ؛ فقد رأوا ملك بدمونت يوافق على هدنة ترددهم الى النمساويين المكروهين الذين يمعنون فى اضطهادهم ، وعاد شارل ألبرت الى تورينو يجلبه العار وقد فقد كل ماكسبه أهل لمباردى .

ولكن غاريبالدى لم يعد الى وطنه ليكون حاضرا مثل هذا الحزى والعار ، فشن حرب عصابات ضد الجيوش النمساوية المتناثرة على حدود الالب السويسرية ، ولكن هذه الحرب لم يطل أمدها ، ولم تكن موفقة ، لأنه لم يكن عنده مؤونة ولا وقت لتدريب الشبان الذين انضموا اليه ، ووقف متزنى الى جانبه زمنا قصيرا ، وحدثت حينذاك بينهما أول مشاجرة حول أهدافهما من أجل إيطاليا .

وقد لام متزنى تلميذه السابق لأنه عرض خدمته على الملك شارل ألبرت ، فأجاب غاريبالدى بأنه لا يتأخر عن تقديم خدمته لأى

قوة تحارب من أجل تحرير الشعب الايطالى ، وقد أثبت بذلك أنه كان عمليا أكثر من متزنى ، ولكن كلا منهما كان يقدر أهمية الآخر ، وكانت معارك الألب المتفرقة قليلة الجدوى ، ولكنها أظهرت للايطاليين الشماليين طراز غاريبالدى القائد والمحارب .

فقال قائد بدمونت : « حينما تنشب حرب أخرى فان غاريبالدى هو الرجل الذى نستخدمه فهو ليس رجلا عاديا » .

وفى أثناء ذلك كان غاريبالدى فى داره فى نيس مع أسرته وبعض ذوى القمصان الحمر ينتظرون جميعا حربا أخرى .



الفصل الخامس

البابا يهرب من روما

أتاحت الفرصة لتوجيه الضربة التالية فى روما ، فقد كان الوطنيون يرتقبون ظهور أى ناحية من نواحي الضعف فى سيطرة الطغاة على ايطاليا وبعد اخفاق الثورة على النمسا عم القلق وساد الاضطراب فى الولايات البابوية .

وكان حكم الكنيسة لهذه الولايات قائما على العنف والطفيان ولا يمت الى الدين بأدنى سبب . وكان غير الايطاليين يجدون دائما صعوبة فى فهم هذه الحالة ، فتسعة وتسعون فى المائة من الايطاليين من أتباع المذهب الكاثوليكي ، وقد كانوا كذلك منذ عهد المسيحية

الأول ، وحينما كان الإصلاح الدينى يحتاج أوروبا جميعها فى القرنين السادس عشر والسابع عشر لم يستطع أن يحولهم عن المذهب الذى دانوا به ، وكانت للكنيسة قوة سياسية كافية لابعاد المصلحين عن ايطاليا واسبانيا وكذلك البرتغال •

ولما كان الناس لا يعرفون لهم ديناً آخر ، بل انهم كانوا يجهلون حقيقة أنه يمكن أن يوجد دين آخر ، لذلك لم يخطر لهم أن يبحثوا عقيدتهم ، وكان يزيد هذه الحالة رسوخا واستقرارا أن الغالبية كانت تجهل القراءة والكتابة، وكانوا لا يعرفون الا ما يتلقونه من قساوسنتهم، وقد تمكن الطغيان من المحافظة على مكانته واستبقاء سيطرته وقوته عن طريق اقامة العقبات فى سبيل جعل الناس يفكرون لأنفسهم •

وهكذا كانت الطبقة القليلة المتعلمة فى الولايات البابوية كما فى سائر ايطاليا هى التى تعارض حكم الكنيسة ، وكان أفرادها يحتفظون بدينهم وكانوا يقاومون القساوسة الذين كانوا عملاء للحكومة وكانوا يظلمون الناس من أجل ذلك ، وكان هناك عدد قليل من القساوسة يحملون بشجاعة عظيمة على هذه الأخطاء التى تورطت فيها الكنيسة ، وكانوا يدفعون حياتهم ثمنا لشجاعتهم ، وكان أنبل هؤلاء القساوسة أوجو باسى أحد أتباع غاريبالدى الذين أحبوه وأخلصوا له •

وكان الوطنيون الرومانيون يقومون بعملهم فى الخفاء ، وكانوا يعملون بوصفهم أعضاء فى الأندية السرية ، ومات الكثيرون منهم شهداء ، وفى هذه الظروف خلف البابا بيونونو البابا جريجورى السادس عشر الذى كان من أظلم البابوات الذين حكموا الولايات البابوية ، وكانت الإصلاحات الحذرة التى قام بها البابا بيونونو قليلة فضلا عن كونها جاءت متأخرة ، ولذلك أرادت النوادى السرية أن تخلص منه جملة •

ومن ناحية أخرى كانت كل دولة أجنبية تريد أن تحتفظ بسيطرتها في إيطاليا تحاول أن ترغم البابا بيونونو على أن ينسى تحريرته الحديثة ويبقى الأمور على ما هي عليه ، وهاجمت النمسا مدينتين من المدن الخاضعة له لتريه مكان وقوفها ، وكانت النمسا إحدى الدول الكاثوليكية العظيمة في العالم ، وكان البابا لا يجترئ على الامعان في تحديها ، وحرار في أمره ، وتراجع عن المضي في محاولاته الإصلاحية على حين كانت الثورة يعلو مداه ويتفاقم حوله خطبها ، وكان زعماء الثورة يستلهمون المثل الأعلى للجمهورية الرومانية القديمة في عهد يوليوس قيصر وهو أقصى ما بلغت عظمة الرومان ، وقد أرادوا أن يعيدوا خلق الجمهورية الرومانية .

وظهرت بوادر العنف فقتل رئيس وزراء البابا ، وفي نوفمبر سنة ١٨٤٨ لاذ البابا بالفرار متنكرا في مسوح قسيس عادي بعد أن أخفق في إخماد الثورة ، وعبر الحدود الجنوبية الى مملكة نابولي ، ووضع نفسه تحت حماية الملك بومبا الذي كان أبغض الطغاة الحاكمين في إيطاليا وأزراهم منزلة في نفوس الإيطاليين .

ولم يكن غاريبالدي غافلا بغير عمل في أثناء وقوع هذه الحوادث ، فقد صمم قبل ذلك بأشهر على ألا يفسد عليه أمره ، اذا حانت ساعة العودة الى استئناف الحرب ، سوء التنظيم والتجنيد السريع للشبان الصغار وهما اللذان عاقا حركاته في غزو الألب ، وكان عدد ذوي القمصان الأحمر الذين جاءوا معه في مونتفيديو من القلة بحيث لا يمكن إلا أن يكونوا نواة لقوة محاربة ، وهم يستطيعون تدريب المتطوعين ويمكن الاعتماد عليهم في المعركة والاستيثاق من أنهم لا يحجمون عن ملاقات الموت الزؤام ، ولكن غاريبالدي كان يعلم أنه لابد من جمع فرقة محاربة حقيقية حوله .

وغادر نيس فى الحزيف باحثا عن مكان يبدأ منه الحرب ، كانت هزيمة لمباردى المخزية تحز فى نفسه ، وقد ابتدر الذهاب وهو يقصد بتسريعه المعهود أن يهاجم صقلية ، أو أى جزء آخر من أجزاء مملكة الملك بومبا ، ولكن حينما وصل الى ليجورن فى الشاطئ الغربى لتوسكانيا لقيه بعض الوطنيين العقلاء وأخبروه عن السبيل الأقوم لخدمة قضية بلاده .

وفى بولونيا وما حولها وفى مقاطعة رومانيا التى تعد بولونيا أهم مدنها كان هناك رجال أشداء ، ذوو حفاظ ، أذكاء ، يريدون أن يتطوعوا ، وهم مستعدون للحرب من أجل حرية بلادهم متى حان وقتها . وقد كانت مدينة بولونيا دائما بجامعة القديمة وماضيها العلمى ومقاومتها للطغيان مهبطا للتفكير وركنا من أركان المعرفة ، ولم يكن هناك جزء من أجزاء الولايات البابوية أصلب منها مكسرا وأشد امتناعا على أساليب القسر والارغام ، وبهذه المدينة كان القسيس الثائر أوجاباسى يهاجم البابا فى وعظه جهارا وقسيس آخر شجاع اسمه الأب جافاتزى هو الذى قاد الناس حينما اندفعوا للترحيب بغاريبالدى وتحية رجالهم وهم ينضمون الى فرقته .

وكانت منطقة الولايات البابوية فى حالة تفكك وانحلال واضح سمح لغاريبالدى أن يجوس خلالها كما يشاء ويدخل مدنها : رافنا وزيمينى وغيرهما، وعلى طول الطريق كان الرجال ينضمون الى فرقته، وكان لا يخطب داعيا ولا يستحث أحدا على الانضمام وانما كان يكتفى بأن يظهر ، وكان يكفى النظر الى قائد ذوى القمصان الحمر ليوحي الى قلوب الرجال حبه والثقة به ، وكان رقيقا لينا فى معاملته ، وكانت أساليبه وعاداته هي أساليب المزارعين وعاداتهم ، وكانت قدرته على احتمال الصعاب لا تحد ، ولم يطلب الى أى انسان أن يحتمل شيئا ؟ يشترك هو معه فى احتماله ، ولم يكن عنده رصيد من المال ليدفع

منه لرجاله ، أو ليعد لهم المعدات اللازمة . ولم يكن عنده مايقدمه سوى سحر قيادته ووعدله بالموت فى سبيل قضية تحرير ايطاليا اذا استلزم الأمر .

وأضمت القوة أشهر الشتاء القاسية - والشتاء فى ايطاليا شديد القر - متنقلة فى الولايات البابوية وعينها متجهة صوب روما ، وكان الموقف بها متأزما ، فقد أعلنت هناك الجمهورية وأنشئ مجلس نيابى، وغاريبالدى نفسه ذكر اسمه بين أعضائه ، وقد اكتفى بالقيام برحلة قصيرة ليأخذ مقعده ثم عاد أدراجه الى فرقته ، وفى كل وقت كان ينضم الى الفرقة متطوعون جدد ، ولم يكونوا جميعا من أحسن الطرز، وكانوا فى الأعم الأغلب من أصحاب الحوانيت والعمال والطلبة من المدن ، وكانوا بغير سترات أو أسلحة جيدة وكانوا كذلك جياعا ، وكان نظام القائد الصارم يقتضى توقيع عقوبة القتل باطلاق الرصاص على كل من يضبط متلبسا بجريمة النهب أو سرقة الطعام ، وكانت الفرقة تطعم بما يقدمه لها الشعب .

وكان قلب غاريبالدى رقيقا الى حد أنه كان يألّم اذا رأى حيوانا جريحا . وكان يبكى حينما يسقط رجاله قتلى فى المعركة ، ويواسيهم مواساة الوالد حينما يصيبهم جرح ، وكان يفرض عليهم قواعد قليلة، ولا يفرض نظاما حربيا الا فى حومة القتال . ولكنه كان لا يسمح بحال أن يصبح رجاله لصوصا وقطاع طرق ، ولو انهم فى الأحوال السيئة التى اكتنفتهم كانوا يظهرون بمظهر الغوغاء فى الأسسّمال البالية .

وتتابعت الحوادث بسرعة ، ووصل متزىنى الى روما فى مدارس ليكون على رأس الحكومة الجمهورية . وكان يأمل أن يتراحب نطاق الجمهورية الرومانية بالتدريج حتى يشمل ايطاليا جميعها، وتونسكانيا

كذلك ثارت على غراندوقها وأعلنت النظام الجمهورى ، وفى هذا الوقت نفسه صمم الملك شارل ألبرت فى الشمال على نقض الهدنة التى أقرها مع النمساويين ، وكان ضميره قد أنه أشد تأنيب حينما رأى ما عاناه أهل ميلانو من ظلم النمساويين . وقد هاجم النمساويين فى غير تبصر ، فأسرعوا عبر حدود لمباردى الى بدمونت وهزموا شارل ألبرت هزيمة شنعاء فى معركة نوفارا ، واضطر الملك الحسن القصد ولكن السيىء التدبير الى أن ينزل عن العرش ويتسلل بعيدا ليموت خارج بلده كسير القلب .

وارتقى العرش مكانه ابنه فيكتور عمانويل ، وبالرغم من أن الملك الجديد قد بدأ حكمه تحت وطأة شروط مذلة فرضتها النمسا فان حكمه مع ذلك كان بداية عهد جديد ولم يكن فيكتور عمانويل ضعيفا سيىء التصرف كأبيه ، كان نزاعا الى الحرية ، وكان حازما ، وقد استعان برجل أكثر منه حزامة وبعد نظر ، وهو رئيس وزرائه العظيم كافور .

وانتصار النمساويين على بدمونت قوى قبضة النمساويين على إيطاليا وجعلهم يتجهون الى الهدف نفسه الذى كانت متجهة اليه الدول الكاثوليكية الأخرى ؛ وهو سحق الجمهورية الرومانية الضعيفة وإعادة البابا الى العرش البابوى . وكانت هذه الدول جميعها تريد أن تظفر بالفخر الدينى ، ولكن الأسباب السياسية كان لها المكان الأول فى توجيههم هذه الوجهة .

وبعد ثورات السنة الماضية واضطراباتهما . ثبت الملوك أقدامهم ووطدوا مكانتهم ، وشددوا قبضتهم على الرعية . وكانوا أعداء للديمقراطية أينما كانت ، وقد تعودوا مدة قرون أن ينظروا الى إيطاليا ، لا باعتبارها أمة وانما باعتبارها فريسة لهم . والآن فان

روما - وهى صميم قلبها - قد أصبحت جمهورية ديمقراطية ، أى انها اتبعت النظام السياسى الذى يمتقونه أشد مقت ويخشونه أشد خشية ، وتحالفت اسبانيا و نابولى والنمسا وفرنسا على وضع حد لهذا وكانت الجمهورية الرومانية تقف وحدها ضد العالم .

وفى ريتى على مسافة قريبة كان غاريبالدى مرابطا بقوته التى أصبح عددها ألفا وثلثمائة رجل ، وسافرت أنيتا من نيس فى ذلك الوقت لتزور زوجها وعادت الى دارها تاركة غاريبالدى فى حذر خشية تهديد الملك بومبا بالغزو من الجنوب ، ولكن الهجوم بدلا من ذلك جاء من ناحية البحر ومن مسافة أربعين ميلا شمال غربى روما ، فقد نزل الى البر عشرة آلاف جندى فرنسى فى يوم ٢٥ من ابريل وبدأت الزحف على المدينة المقدسة ، وأرسل وزير حرية الجمهورية الرومانية الى غاريبالدى وفرقته الإيطالية الاولى .



الفصل السادس

أول انتصار لغاريبالدي

وبعد مضي أربع وعشرين ساعة وجيش نابليون الثالث الفرنسي قادم من الغرب نهض أهل روما جميعا للترحيب بحماتهم ، ونفر رجال الأعمال والعمال وسكان الأحياء القذرة الحقيمة في جانب التيبر الى ناحية الكورسو وهم يصيحون : « لقد أتى ! لقد أتى ! » •

وفي وسط الطريق الواسع احتشدت جموع المحاربين وهم ينظرون بعيون مستوحشة كما وصفهم نحات انجليزى كان يقف بينهم ويرقب المشهد التاريخى ، كان بعضهم على ظهور الجياد ، ولكن

الغالبية كانوا يسرون على الأقدام ، وكانت الرجال صلاب العود لوحات وجوههم حرارة الشمس مرسلى اللحى غبرا شعنا وعلى رؤوسهم قبعات سوداء مخروطية الشكل يهفو فوقها ريش ، وكانت هذه القبعات تستر شعورهم الطويلة الحشنة ، وقد أعطتهم الجمهورية الشابة أخيرا كسى عسكرية من نوع ما ، وكانت مكونة من معطف فضفاض أسود اللون وقبعة خضراء ، وكان هؤلاء هم الجنود العاديين .

وكان الضباط الذين جاءوا عبر الدنيا لمواجهة هذه الساعة يلبسون القمصان الحمر وشعورهم مرسلية وهى علامة الغاريبالدين ، واحتشدت الجموع حول الزعيم كما وصف لنا الكثيرون من شاهدى العيان وكان غاريبالدى على جواده الأبيض فى وسطهم لا فى الطليعة ، وقد التف فى بنقة ، وكان يسير خلفه تابعه الأمين العملاق الزنجى من أمريكا الجنوبية « اجيار » على جواد أدهم منهم .

وجن جنون الناس واستطارتهم الفرحة ، وهؤلاء الذين كانوا غير متحمسين فى أول الأمر للجمهورية - وكان هناك كثيرون منهم - عدتهم حمى الوطنية ، وعرف الكثيرون لأول مرة كيف يشعرون بقوميتهم ، وكانوا مستعدين أن يواجهوا الموت لاثبات ذلك ، ولهم الآن زعيم مجاهد ورئيس حكومة يحترمونه ويحبونه ، لقد ألهمهم غاريبالدى ومزىنى وأثارا فى نفوسهم الشعور بالعزة والكرامة .

وتجمع سكان المدينة وشمروا عن سواعدهم وأخذوا يحفرون فى الشوارع وبينون الحواجز والسدود ، واشتركت فى الدفاع عن قضية الجمهورية جميع طبقات الشعب حتى السيدات النبيلات والأغنياء الذين ألفوا الراحة والبطالة . وعسكر غاريبالدى وفرقته فى ساحة دير حيث كان يستطيع أى انسان أن يدخل ويحصل على معلومات ، وكان القائد يخرج ويمر بالشوارع المزدهمة ويشجع الذين يحفرون الأرض ويضم الرجال المتلفين على الانضمام الى الفرقة .

وقد حدثنا مصور شاب عن الشعور الذى خالجه فقال : « لم تكن عندى فكرة التطوع فى الفرقة ، وانما ذهبت من قبيل حب الاستطلاع ولكن آه . انى لى أنسى ذلك اليوم حينما رأيته على جواده الأبيض فى السوق بصورته النبيلة ، ووجهه الهادى الحنون ، وجهته العالية ، وشعره الحقيقى ولحيته ، وقد ذكرنا برأس مخلصنا الموجود فى قاعات عرض الصور ، وهكذا كان يقول كل انسان ، ولم أستطع المقاومة ، وذهبت وراءه وألوف من الناس عملوا ماعملت ، وكان عليه أن يظهر فحسب لنعبده جميعنا » .

ولم يضع غاريبالدى وقتا طويلا فى مثل هذه الأشياء ، كان يريد أن يقطع برأى فى معرفة المكان الذى يدافع فيه عن روما ، وكان الجانب الغربى من المدينة يحده حائط يحيط بالفاتيكان والمرتفع الطويل الذى كان يسمى « تل جانيكالم » ، وكان هناك أربعة أبواب فى السور ، وثلاثة منها لم تكن لها أهمية خطيرة ، وكان أحد هذه الأبواب قد سد قبل ذلك بأعوام ، ولكن الحرائط الفرنسية الحربية لم توضح ذلك، وقد ذهبت عبثا للجهود الأولى لاختراق الباب غير الموجود، وكان المدافعون قد وضعوا المدافع فوق الأسوار لتغطية البابين الآخرين فى ناحية الشمال .

وكان الباب الرابع - وهو باب بورتاسان بانكراتزيو فى الجنوب الغربى - هو الذى سيدافع عنه . وكانت الأرض المرتفعة فى ناحية الغرب خارجة أعلى من السور نفسه ، وإذا كان الفرنسيون يستولون على هذه المرتفعات ويضربون المدينة بالمدافع منها فإن السور يصبح عديم الفائدة ويصبح الدفاع عن روما غير ميسور .

ورأى غاريبالدى أن عليه أن يثبت قدمه من فوق هذه المرتفعات خارج السور ، وأن يقوم بذلك قبل أن يسبقه اليها الفرنسيون ،

وكانت فوق هذه المرتفعات مجموعة من المنازل الجميلة وحولها حدائق غناء تملكها أسر تنبيلة . وكان بينها فيلا بامفيل وفيلا كورسينى وخارج الباب مباشرة كان هناك منزل يسمى فاسللو ومعناه بالاطالية السفينة ، وكان هذا المنزل مستطيلا وضيقا كالسفينة ، ومن ثم اسمه .

وكانت فرقة غاريبالدى متيقظة متأهبة حينما وصل العدو الى أسوار روما بعد نزول الفرنسيين الى البر بخمسة أيام ، وكان عند غاريبالدى علاوة على فرقته جيوش أخرى ، منها فرقة الرماحة - وهم فرسان الحرب الخاطفة تحت قيادة قائدهم الهمام انجيلو ماسينا ، وكان ماسينا شابا وطنيا غنيا من بولونيا وقد أنشأ فرقة الرماحة هذه وزودها بالسلاح على نفقته . وقد نمت معرفته بغاريبالدى خلال أشهر الشتاء السالف وكان شديد الإعجاب به، وكانت فرقة ماسينا الرماحة قد انضمت لفرقة القائد التى كان معظمها من المشاة .

وإذا كانت هناك ثلاث جماعات أخرى من المحاربين ، وكان خيرها فرقة الشرطة الجريبة وجيوش البابا التى ثارت على حاكمها ، وكان يتلو هؤلاء جماعة المتطوعين البالغ عددها ألفا وخمسمائة وقد جاءوا الى روما بعد أن حاربوا النمسا فى سبيل قضية لمباردى الحاضرة ، وكان وراء هؤلاء جميعهم أهل روما العاديون ، وهم فريق من الرعاع غير المدربين تجمعوا عند الأسوار مسلحين بالسكاكين والخنجر والحراش وبنادق الصيد القديمة ، وفى الواقع بكل شئ يمكن أن يقاتل به .

وأخيرا فى التاسع والعشرين من إبريل اشتعلت روما حماسة بوصول فرقة الرماة المبارذية الرائعة المفاجيء تحت قيادة الماجد الغطريف لوشيانو منارا الميلانى؛ فكيف جاء هؤلاء المحاربون البارعون الى روما ؟ انهم بعد أن أظهروا شجاعة ممتازة فى ثورة الأيام الخمسة

فى ميلانو ، وأبلوا بلاء حسنا فى محاربة النمسا ، وتجرعوا ذل هزيمة نوفارا التى كان سببها ماتورط فيه الملك شارل ألبرت من أخطاء ، آثروا أن يظلوا فى بدمونت على العودة الى عبودية النمساويين ، وكان مانارا مثل غاريبالدى له فرقة لا تجسد مكانا للحرب ، وقد أمدهم فيكتور عمانويل بأسلحة جيدة من أسلحة الجيش البدمونتى ولكن لم ينط بهم عملا .

ولذلك أبحر مانارا وفرقته البالغ عدد رجالها ستمائة الى روما ، ولما اقتربوا من الميناء على مسافة أربعين ميلا من المدينة الحالدة رأوا القائد الفرنسى أودينو وهو يشرف على نزول جنوده الى البر ليتجهوا الى المكان نفسه الذى كانوا يقصدونه ، وتحدى أودينو مانارا الذى رأى أنه ليس من الصواب أن يخاطر بفرقته فى الالتحام بجيش يفوق فرقته الى حد كبير من ناحية عدد جنوده ، وبخاصة لأن غرضه كان الانضمام الى جيش غاريبالدى فى روما ، ولذلك تفاهم القائدان ، ووافق أودينو على ألا يتدخل فى نزول فرقته مانارا الى البر اذا وعد بألا يحارب فى أول اشتباك يقع فى روما ، وقد وفى مانارا بوعده . ولكن بعد ذلك خاض رجاله غمار الحرب وأظهروا بطولة خالصة ، ولا تزال فرقة الرماة موضع فخر ايطاليا ، وهى فرقة من المشاة بقبعاتهم المزدانة بالريش ومشيتهم العسكرية وحربهم مخبئين حينما يضاعفون خطواتهم .

وبلغ عدد جنود الفرق التى كان يقودها غاريبالدى سبعة آلاف ، وكان عدد أفراد الجيش الفرنسى عشرة آلاف جاءوا الى أسوار روما فى صباح يوم ٣٠ من ابريل حسنى الاعداد ومزودين بمدافع ميدان ولكن لم يكن معهم مدافع حصار ثقيلة ، لأنهم لم يتنازلوا الى التفكير فى أن روما قد تدافع عن نفسها .



كان أتباعه يحاربون بالسكاكين والخنجر والحراب

واضاع أودينو وقتا وفقد رجلا مجربا الهجوم على الأبواب الثلاثة (بما فيها الباب غير الموجود) فى شمال سان بنكرازيو ، وكان غاريبالدى قد وزع قواته بحذق توزيعا حسنا على طول الأسوار المسيطرة على هذه الأبواب ، والايطاليون يحسنون تنسيق الحقائق والبساتين ، ويجيدون بوجه خاص تعهد الكروم وعمل الحقائق المعلقة ، وكانت الأسوار مغطاة بالكروم والحقائق المعلقة ، وكان الايطاليون يقتلون الفرنسيين بالنيران التى كانت تنصب عليهم من الكروم والأزهار المتسلقة التى كان يختبئ وراءها المدافعون عن المدينة .

وأخفق الفرنسيون فى هجومهم الأول ، ولذلك أخذوا فى التحول والمسير الى الجنوب نحو المرتفعات حيث كان ينتظرهم غاريبالدى ، وقد رأى من شرفة فيلا كورسينى العالية ارتداد الفرنسيين عن الأبواب الشمالية ، وكان الوقت حينذاك ظهرا ، وصمم القائد على أن يهاجم وأن يرسل فرقا من حقائق بامفيل ويهاجم طليعة الجيش الفرنسى القادمة الى أسفل الزقاق .

وكان أول فوج من الايطاليين مكونا من جيوش الشبان الناشئين ، ومعظمهم من نابتة الطلبة ، وقد أوقف هجومهم المفاجئ الفرنسيين قليلا من الزمن ، ولكن العدو استأنف الهجوم . وكان الفرنسيون مدربين وعددهم خمسة أضعاف عدد المتطوعين ، فارتد الشبان الايطاليون الناشئون الى الحقائق والفرنسيون فى أعقابهم ، وحين وقت هجوم فرقة غاريبالدى التى اندفعت الى سفير المعركة والتحمت الحرب .

وحملت المعركة واستمر القتال ، وثبت جنود فرقة غاريبالدى فى بعض الجهات واستبسلوا فى الدفاع عند بامفيل ، وفى جهات أخرى نكسوا على أعقابهم ، واقتحم الفرنسيون كورسينى التى كانت

جد قريبة من أسوار المدينة . وفى تلك اللحظة جاءت امدادات ايطالية يقودها الجنرال جالتى ، واستنفر غاريبالدي رجاله جميعهم وانطلق فى طليعتهم ليقود الهجوم ، وكان ضباط غاريبالدي « نمر مونتفيديو » منبئين فى وسط الجموع الهادرة المصطخبة بوجوههم الملتهبة التى تثير الرعب ، وشعورهم الطويلة وقمصانهم الحمر مما جعلهم هدفا جيدا للعدو وباعث الهام للفرقة . وكان يقف خلفهم رعاى روما الثائرون الغاضبون ، وأمامهم يتقدم القائد هادئا وقورا غير مبال البتة بالأخطار وهو يمتطى جواده الأبيض « وبنقه » الأمريكى يتطاير فوق عاتقيه كالعلم ، وقد جرح فى جبينه ذلك اليوم ولكنه تجاهل الرصاصة وهمس للجراح حينما رآه قائلا : « احضر لثرائى فى هدأة الليل فانى جريح ولكن لا تعلم أحدا بذلك » . وقد احتمل آلام هذا الجرح طوال الأسابيع الحرجة التالية .

وخلال فترة العصر شقت الفرقة طريقها الى الأمام ، وكان أفرادها يحاربون بالسونكى من مسافة قريبة ، وتكبد الفرنسيون خسائر جسيمة ، وجزء من الجيش الفرنسى دفع دفعا عبر الطريق الى حديقة فيلا تسمى فالنتينى ، وهناك أحاطت به فرقة الرماحة التى يقودها ماسينا وسحقته سحقا وأسرت عددا كبيرا من الجنود الفرنسيين .

وفى أثناء ذلك كان رجال فرقة غاريبالدي يدفعون الفرنسيين ويضطرونهم الى التقهقر فى ناحية الزقاق الذى يفضى الى طريق الميناء الذى نزل به الجيش الفرنسى الى البر والذى كانت قد رابطت فيه فرقة للمحافظة على خط تموين الجيش ، وحوالى الساعة الخامسة تمت هزيمة الفرنسيين ، وأسر منهم ثلثمائة وخمسة وستون جنديا ، وقتل خمسمائة جندي .

وقد قاد غاريبالدى فرقته وسما بالرومانيين الى الانتصار ، وفى الليل تلالأت الأنوار فى المدينة وانبعثت هتافات الانتصار ورن صداها فى أرجاء المدينة ، وبعد قرون من العبودية المزرية كانت روما تحتفل لا بالانتصار وحده وانما بادراكها لمكانتها بوصفها قلب ايطاليا الحرة وروحها .



الفصل السابع

الحجينة الفرنسية وأخطاء متريني

أراد غاريبالدى أن يؤيد انتصاره بالمبادرة الى مطاردة الفرنسيين المتقهقرين حتى يبلغ بهم شاطئ البحر ، شأن كل قائد قدير ، ويبدو أنه لم يكن هناك أحد فى روما يخالفه فى ذلك ، ولكن متريني تصدى لمعارضته ، وهنا نرى — لا لأول مرة ولا لآخر مرة — ماذا كان يقاوم غاريبالدى حينما كانت أفكاره ، وهى أفكار الجندى المجرب ، تصطدم بحيل السياسيين وأساليبهم . ولقد كان متريني رجلا حسن القصد خالص النية ، ولا خلاف فى أنه كان رجلا عظيما ، وكان هو الوحي الروحي لايطاليا الحرة ، ولكنه لم يكن من طراز الاداريين ، كان رجلا غير عملي وغير واقعى ، وفى بعض الأحيان كانت تعوزه الحكمة الى حد كبير .

وقد أثبت ذلك فى هذه الظروف بموقفه تجاه الفرنسيين ، فبدلاً من أن يدعو الغازى المعتدى غازيا معتديا عامل الفرنسيين معاملة من يعى حقيقة أن فرنسا لم تكن متحدة فى الموافقة على سياسة امبراطورها ابن أخى نابليون الأول ، كان هناك عناصر جمهورية ديمقراطية قوية فى فرنسا ، ولو أن متزىنى بالغ فى تقدير نفوذها ، وقد ظن أنها قد تكبح جماح الامبراطور وتحمله على الانسحاب من التسابق الى اعادة بيونونو الى كرسى البابوية .

وصمم متزىنى على المخاطرة بذلك ؛ لأنه كذلك كان يعلم أن النمسا ونابولى ليس بهما مؤثرات تحررية تقاوم عدوانهما على ايطاليا ، ولذلك كانت النمسا تحتاج مقاطعة رومانيا على حين كان الفرنسيون يتقدمون نحو روما ، وحشد الملك بومبا جيشا قوامه عشرة آلاف جندي فى تلال البان على بعد خمسة وعشرين ميلا من جنوب روما ، وقد وضع خطة لاعادة البابا بيونونو ليكون حاكما مستبدا ؛ لأنه هو والبابا غير الجدير بمكانته لم يكن عندهما أى نوع من ميل الفرنسيين الى الديمقراطية .

ولذلك قامر متزىنى بمعاملة الفرنسيين معاملة كريمة ، وقد جرى أهل روما فى ذلك على مافى قلوبهم من عطف هو أقرب الى طبيعة الايطاليين من الولع بالحرب ؛ فقد طببوا الجرحى الفرنسيين ، وأطلقوا سراح الأسرى الفرنسيين لينضموا الى فرقهم .

ونستطيع أن نرى اليوم أن هذا كان ضربا من الحماقة ، وقد كان أودينو مؤدبا فى سلوكه مع متزىنى ، ولكنه لم ينسحب من الميناء الواقع فى غربى روما ؛ فقد ظل هناك متظاهرا بأنه ينتظر شروط الهدنة، ولكنه فى الواقع كان يتلقى الامدادات ليقوم بهجوم آخر - كما حزر غاريبالدى وهو مغيظ محقق - ولسنا ندرى هل كان متزىنى على

حق حينما قال لغاريبالدى انه اذا طرد الفرنسيين طردا كاملا فانهم سيبعثون بحملة أكثر عددا لغزو روما مرة ثانية .

والحقيقة أن متزيني كان من بادىء الأمر يعتقد أن جمهورية روما الصغيرة لا تستطيع أن تثبت لحملات الدول الثلاث الكاثوليكية الساحقة ، ولكن اذا كان لابد من سقوطها فليكن ذلك فى فخار ومجد وبطريقة توحى الى الايطاليين العزة والكرامة والتصميم القوى على كسب بلادهم لأنفسهم .

وقد كان هذا شيئا حسنا للغاية ونبيلا ، ولكن الجندى لا يفكر بهذه الطريقة ، فهو يحارب لينتصر ، وهو يطيع أمر رئيس الدولة ، ولذلك عمل غاريبالدى بما أمر به ، ولما منع من مطاردة الفرنسيين اقترح أن يقود فرقته وبعض الفرق الأخرى ليسحق الملك بومبا ويترك الجيوش الرومانية متأهبة لمواجهة الفرنسيين اذا نكثوا العهد ونقضوا شروط الهدنة ، ووافق متزيني على ذلك .

وبادر غاريبالدى فى الحال ومعه ألفان وخمسمائة من الجنود الى مهاجمة جيش يبلغ عدد رجاله أربعة أضعاف جنده ، وكانت هذه الحروب ملائمة له ، فقد كانت هناك فرصة لحرب على طريقة حرب العصابات التى حذقها غاريبالدى ، والتظاهر بالهجوم ، وخداع العدو ، والهجمات الخفيفة على الجناحين . وكان كل شيء متوقفا على السرعة والمبادأة والجرأة ، وكان ضمن فرقة غاريبالدى جماعات متناثرة من الجنود الذين حاربوا عند أسوار روما ، ولأول مرة اشتركت فرقة الرماة التى يقودها مانارا .

وما كان أروع من منظر . . رجال غاريبالدى المجاهدون الأشداء والى جانبهم فرقة السادة الطيارين من ميلانو وبافيا . وقبل بدء القتال كتب مانارا فى رسالته الى بلده : « انى ذاهب مع غاريبالدى .

انه شيطان ، ومثل النمر، ورجاله جيش من قطاع الطرق وسأساعدهم فى هجومهم الجنونى بفرقتى المنظمة المكونة من سادة أباة للضميم لاثنيين بالصمت » .

وربما كان هذا تقريراً من مانارا يخالف حكمه الأصح وتقديره الأكثر اتزاناً وبعد ذلك بشهر أصبح رئيس أركان حرب غاريبالدى ، وتعلم أن يحبه شأن كل من عرف غاريبالدى وحارب معه .

وقد كتب كاتب شاب كان بين فرقة الرماة التى يقودها مانارا تقريراً عجيباً عن ذوى القمصان الحمر وفرقتهم ، وقد أدهشه أن يرى غاريبالدى وضباطه يعيشون مثل سائر الناس فيعنون بخيولهم وينامون على الغبراء ملتفين فى « بنقهم » ، وقد حملوا معهم عادات العالم الجديد ، فكانوا اذا لم يستطيعوا الحصول على زاد من القرويين يكفيهم يحمل ثلاثة أو أربعة ضباط من مونتفيديو أناشيطهم وينطلقون على متون خيلهم بغير سرج ويسوقون أمامهم الماشية والغنم من المزارع التابعة للكرادلة الأثرياء ، ولم يكن غاريبالدى يرى بأساً فى الاستيلاء على أملاك الأعداء ، وكان يعود هؤلاء الضباط من رعاة البقر الى المعسكر وهم يسوقون أمامهم الغنائم ومعهم أسراب من الدواجن وقد شويت فى نيران المعسكر الهائلة ، فى حين كانت الخيل ترعى حرة على مسافة من المعسكر ، وحينما يحين وقت اسراج الخيل ترمى الأناشيط مرة ثانية ، ولم ير الايطاليون شيئاً مثل هذا من قبل .

ولم يضع القائد وقتاً فى هجومه الأول على بومبا ، وقد كان جيش نابولى معسكراً فى السهل الممتد أمام مدينة بالسترينا الواقعة على تل ، وقد فاجأه غاريبالدى ، بجماعات صغيرة من الطلائع السريعة وبعد ذلك قام بهجمتين سريعتين على الجناحين ، وكان يقود الجناح الأيسر مانارا ، ويقود الجناح الأيمن غاريبالدى ، وقد وضع ضباط

جيش نابولى الأغبياء وجنودهم الجبناء فى شبكة من النيران ، ولم يعض ثلاث ساعات حتى تعلقوا بأذيال الفرار مشاة وفرسانا ملقين أسلحتهم وهم يهمون بالفرار .

وهذا اللقاء الأول مع جنود نابولى البائسين البدائيين المخرفين كان له تأثير عميق فى نفس غاريبالدى ، فجهلهم وجبنهم لم يكونا نتيجة خطأ وقعوا فيه ، وانما كان مردهما الى عار حكم البوربون الذين تركوهم مدة قرون فى حالة تكاد تشبه الحيوانات ، ولم يكن لهم قبل بملاقاة رجال فرقة غاريبالدى الأشداء المعتمدين على أنفسهم والليبارديين المتعلمين الحسنى التدريب .

ورأى غاريبالدى فى بالسرينا للمرة الثانية شجاعة نينو بيكسيو الضابط الجنوبي الحاد الأخلاق الذي يحارب بغير مبالاة بالأخطار ، وقد ظل فى صحبة غاريبالدى الى النهاية ، وهنا ارتدى القسيس الثائر أوجو باسى قميصا أحمر وركب فى هدوء مستهدفا لنيران الوغى ، ليحرض رجال الملك بومبا على ألا يحاربوا ضد بلادهم . ورأى غاريبالدى بعد ذلك أن يعد مجموعة من القمصان الحمر ليزود بها كل فرد من أفراد الفرقة ، وليستطيع أن يشتري منها كل وطنى يريد أن ينضم الى الفرقة الغاريبالدية .

وبعد مطاردة جيش الملك بومبا ومدافعته الى داخل حدوده استلزمت الأحوال السياسية استدعاء غاريبالدى قبل أن يتم عمله ، فان المفاوضات مع الفرنسيين لم تكن سائرة كما أمل متزىنى ، وساء ظنه بالفرنسيين وأرسل يستدعى غاريبالدى على عجل ، وظل غاريبالدى طوال الليل يشق طريقه عائدا الى روما حاملا بعض الجرحى الذين احتملوا من الآلام مالا طاقة لأحد باحتماله ، ولم يكد يصل الى روما حتى كان متزىنى قد غير رأيه فقد غرر نابليون الثالث

بمتزىنى ، وقدم له وعودا زائفة ، واستقر رأى متزىنى على أن من الخير
اجلاء جيش نابولى عن حدود الجمهورية .

وأسندت القيادة الى الجنرال روسيللى ليقوم بهذا الهجوم وتحت
امرته قوة كبيرة من الجنود المحترفين ، وعهد الى غاريبالدى بقسم من
الجيش أقل شأنا ، وكان من الطبيعى أن يترك الغضب غاريبالدى
وتستولى عليه الغيرة ولكن لم تبدر منه كلمة واحدة تدل على شعوره
بالغضب أو الغيرة ، واكتفى بقوله انه يقبل ذلك عن طيبة خاطر اذ انه
يتيح له الفرصة ليجرد سيفه لمحاربة أعداء بلاده ، ولكنه أظهر عجز
روسيللى أمام مدينة فيلترى التى هزم عندها جيش الملك بومبا ، فان
حركات غاريبالدى العسكرية السريعة جعلت جيش نابولى يولى هاربا
فى الوقت الذى تلكأ فيه القسم الأكبر من الجيش الذى يقوده روسيللى
ووقع فى أخطاء كثيرة .

وكان غاريبالدى مقتنعا الاقتناع كله بضرورة مطاردة جيش
بومبا مطاردة قطيع من الأغنام حتى مدينة نابولى ، لاعتقاده أن أهل
نابولى يمكن حفزهم الى الثورة على الملك بومبا ، ولكن لم تعط له
الفرصة لإثبات ذلك ، لأن النمسا استولت على بولونيا فى ذلك الوقت
وكانت تهدد الجمهورية من الشمال .

وأطاع القائد الأوامر مرة ثانية ، وترك قرية فى داخل حدود
مملكة نابولى ظنه أهلها فى بادئ الأمر تابعا للشيطان ، ثم أدركوا بعد
ذلك أنه ملاك أرسل لانقاذهم ، وعاد أدراجه الى روما وهو ينتظر أن
يرسل لمحاربة النمساويين .

وبدلا من ذلك وجد حينما دخل روما فى اليوم الحادى والثلاثين
من مايو أن حكومة متزىنى قد خدعت بخيانة حقيرة مزرية ، فبينما كان
ديليسبس المبعوث الفرنسى يوقع معاهدة لعقد صلح مع الجمهورية

الرومانية كان أودينو قد استكمل امداداته عملا بأوامر نابليون الثالث ، وأصبح تحت امرته عشرون ألفا من الجنود وست مدفعية ومدافع حصار ومهندسون وعسكر على بعد ميلين خارج المدينة ، وكان مقررا أن يتلقى عشرة آلاف جندي آخرين وأسلحة للحصار خلال الشهر نفسه ، أى ان أودينو خرق المعاهدة ونقض الهدنة فى يوم اقرارها .

وحتى بازاء هذه العقوبات الباعثة على اليأس لم تستطع حكومة متزيني أن تسمو على المنافسات الحقيرة وتعهد بقيادة الجيش جميعه الى غاريبالدى ، فقد عينت روسيللى قائدا عاما للجيش وهو الذى قصر فى الاستعداد حينما كانت العين العارية تستطيع مراقبة حركات أودينو، وأناطت بغاريبالدى الدفاع عن تل جانيكالم وهو مفتاح روما، ولكنه لم يعط حتى المعلومات الوثيقة عن الموقف هنالك .

وكان روسيللى وهو المستخف بالتبعة الملقاة على كاهله الى درجة لا يمكن تصديقها قد تحدث مع أودينو وقبل تأكيده بأنه لن يستأنف الهجوم حتى اليوم الرابع من يونيو ، وبطبيعة الحال نقض الحونة الفرنسيون وعدهم ؛ ففى الساعة الثالثة من صباح اليوم الثالث من شهر يونيو دخل فجأة مهرولا الى حجرة غايبالدى المتواضعة فى روما الملازم الشاب دافريو وهو يصيح قائلا ان الفرنسيين قد بدءوا الهجوم واستولوا على فيلا بامفيلى وفيلا كورسينى ، وكان القائد ملازما الفراش متألما من نفور جرحه القديم .

فوثب القائد من فراشه ليقود الاندفاع الى الأسوار .



الفصل الثامن

حصار روما

قُبيل الساعة الخامسة في صباح ذلك اليوم كان غاريبالدي في طريقه لمهاجمة الفرنسيين في فيلا كورسيني ، وقد خرج ممتطيا جواده من باب سان بانكراتزيو على رأس فرقة ومعه ماسينا وبيكسيو ودافيريو وميديتشى وغيرهم من الضباط الشبان ملتفين حوله ، وكانت روما خلفهم في هياط ومياط ، ومئات من كنائسها تقرع نواقيس الخطر والجنود والمواطنون يتسابقون الى حمل السلاح ، وفي طريق سان بانكراتزيو الضيق كان عدد جم من الجنود مخفيين ، وقبل أن

ينتهى اليوم كان هناك تياران زاخران : تيار الجنود المحاربة المسرعة الى الأسوار ، وتيار آخر عكسى بطنى من الجرحى العائدين .

وبتتبعنا المعركة ٣٠ من ابريل يمكن أن نتبين مزايا موقف الفرنسيين ، فقد كانوا الآن قد سيطروا على المرتفعات خارج سور المدينة الذى لم يكن له فائدة تذكر قبل ضرب المدينة بالدفاع ، وفى داخل المدينة كان قل جانيكالم هو الحاجز الوحيد الذى يعترض تدفقهم الى نهر التيبر ومنه الى قلب المدينة المنبسطة خلفه .

وكان الاستيلاء على فيلا كورسينى التى أصبحت فى قبضة الفرنسيين أمرا حيويا ، وليس ذلك من أجل ارتفاعها فحسب ، وانما من أجل موقعها المستشرف ، ولقد كانت قائمة خلف سور منخفض صفت فوقه أوعية ضخام تحوى أشجار برتقال ، وكانت هذه الأوعية مجان واقية للرماة ، وتجاه المنزل عطفتان منحدرتان نحو المدينة على جانبيهما سياج من نباتات تلتقيان عند زاوية مثلث يوضحها باب يفضى الى الطريق ، وكان هذا الباب هو المداخل الوحيد الى حدائق كورسينى بامفيل ، وكان عنق زجاجة مميتا على الايطاليين المهاجمين أن يمروا منه ، والفرنسيون يحميهم سياج النباتات على طرفى العطفتين وأشجار البرتقال على السور ، وكان يسمى فى التاريخ « زاوية الموت » ، وقد تضمن هذا الاسم الكثير من الصديق الحزن .

وأخذ غاريبالدى مكانه فى مواجهة الطريق المفتوح أمام الباب وهو ممتط جواده الأبيض غير مبال بالخطر ، وكان يأمر شردام من فرقته بالتقدم الى زاوية الموت شذمة بعد أخرى لمهاجمة الباب والمنحدر الموصل الى المنزل تحت نيران الفرنسيين المهلكة التى لا تنقطع ، واذا ظل عدد كاف منهم أحياء فان عليهم أن يحملوا حملة عنيفة على الدرج المزدوج الموصل الى قاعة الاستقبال لمهاجمة الفرنسيين بالسوتكى واجلائهم عن الفيلا .

وفى كل مرة يحدث هذا كان الفرنسيون يرتدون الى حدائق بامفيل الواسعة الواقعة خلفهم ، وكانوا يستطيعون معاودة الهجوم ويستردون المنزل تحميمهم مدفعيتهم من الأخطار التى فتكت بالايطاليين ، وبهذه الطريقة تغير الاستيلاء على فيلا كورسينى مرات عدة قبل الساعة الثامنة من الصباح ، ولكن رجال غاريبالدى لم يستطيعوا تثبيت أقدامهم هناك لأنهم لم يتلقوا امدادات مستمرة من المؤخرة وفى كل هجمة جديدة كان يسقط رجال من جنود الفرقة الأنجاد ومنهم معظم لابسى القمصان الحمر القدامى الذين كانوا يقودون الهجوم ، وقتل دافريو وجرح بيكسيو وماسينا ، وكان القائد وحده هو الذى نجا بأعجوبة بالرغم من أن بنقه كان ممتلئا بثقوب من وقع الرصاص .

وفى أثناء ذلك كان مانارا وفرقته من الرماة لا يزالون فى روما منتظرين فى ساحة روما (الغورام) الأمر بالتقدم ، وكان غاريبالدى قد أصدر هذا الأمر ، ولكن روسيللى نقض هذا الأمر ولم تفسر قط أعماله تفسيراً واضحاً ، وأخيراً صاح لوشيانو مانارا برجاله قائلاً : « الى الأمام » . واندفع الرجال الأبابة القادمون من الشمال ، وكانت الساعة قد بلغت الثامنة حينما وصلت الفرقة الى زاوية الموت ، وكان الفرنسيون قد استردوها فى التو واللحظة ، وقاد مانارا نفسه الهجوم من الباب الى التل الى ستار النار الذى كان يضعه الفرنسيون .

وكان هذا الستار الأشد فتكاً ، وكان الفرنسيون قد تجمعوا وكونوا سداً منيعاً ، وجاء الرماة كالمذ الزاخر وكانوا يتساقطون وهم يتقدمون وزملاؤهم يشوب فوقهم ولم يتراجع واحد منهم أو يتخاذل ، وحينما كانوا لا يستطيعون التقدم كانوا يلبثون فى مكانهم ويجثون على ركبهم ويطلقون النيران ، والى جانبهم يقف ضباطهم فى ثبات

واصرار ، وراقب مانارا الموقعة مدة عشر دقائق كانت فظيعة قاسية ، ولم تستطع الفرقة مواالة التقدم ، كانت النيران الفرنسية تجعل ذلك من المستحيلات ، فأمر مانارا رماحته بالارتداد .

وما كان أقسى ذلك على نفوس الرماحة الأمجاد ، لقد احتملوا خسائر جسيمة والفرنسيون يحصدونهم حصدا وهم يرتدون من زاوية الموت ، ولكن هجومهم وقف الكسب الدائم للفرنسيين ومكن فرقة غاريبالدى خلفهم من الاستيلاء على فيلا فاسشيللو وغيرها من المغاني الواقعة فى سفح تل كورسينى .

وانتهى اليوم بهجوم جنونى آخر جرى على فيلا كورسينى ، وبعض حركات غاريبالدى الحربية لم تكن حكيمة ، ولم يكن يجيد هذا النوع من الهجوم اجادته للحركات السريعة فى حرب العصابات ، وقد ضحى بحيوات كثيرة فى هجمات متوالية بشراذم قليلة دون أن يستغل استغلالا كافيا ما عنده من المدفعية القائمة على أبراج السور .

ولكن فى أواخر اليوم أمر بضرب منزل كورسينى بالمدافع الأمامية ضربا شديدا حتى تطايرت منه كتل ضخمة، واضطرب الدفاع الفرنسى ، وقام رجال غاريبالدى بهجوم يقودهم أربعون من فرقة ماسينا الرماحة الذين ثرجلوا عن جيادهم وأخذوا يطلقون الرصاص، وكان يركب فى طليعتهم قائدهم الكولونيل الشجاع وقد جاء من مستشفى الميدان وذراعه الجريح محفوفة بحمالة ، وهز سيفه مستحشا جواده على الاخباب الى سلام فيلا كورسينى ، وهناك قتل وظل ملقى على الأرض التى يتنازع عليها الفريقان مدة أسابيع وللرصاص والقنابل أزيز فوق جثته .

ولما أقبل النبيل كان المهاجرون والمدافعون قد استقر كل منهم فى المواقع التى استولوا عليها ، وظلوا على تلك الحال المدة الباقية من

شهر يونيو الذى حفل بالحوادث الفاجعة ، وقليل من حوادث التاريخ ما يشبه مأساة بطولة الدفاع عن روما وهى محاصرة ، ولقد كان الدفاع عنها مقضيا عليه منذ اللحظة الأولى ، ولكن هذه اللحظة امتدت الى سبعة وعشرين يوما من المقاومة الحامية والدفاع المجيد .

وكانت كلمة الايطاليين التى اتخذوها شعارا هى : « لا تسليم » ومات مئات من زهرة الشبان وهم يرددون هذه الكلمة ، وكان رد الجرحى وهم فى طريقهم الى المستشفيات المزدحمة للذين كانوا يحيونهم من أهل روما « لتحيا ايطاليا » لتحيا الجمهورية . » وضرب الفرنسيون المدينة بالدفاع الذى كان يزداد كل يوم شدة لم يقض على روحهم المعنوية ، ولكن المدافع الايطالية التى كانت فوق أبراج السور، ولم تكن ضخمة أو كافية لتحويل التيار برغم ما أظهره رجال المدفعية الايطاليون من البراعة ، وغاية ما استطاعوا هو تجميد الموقف مدة أسابيع .

واتخذ غاريبالدى مركزا لقيادته منزلا فى داخل باب سان بانكراتيزيو ومن أعالى هذا البيت على قل جانيكالم كان يستطيع توجيه الدفاع القائم على الأسوار ذوات الأبراج وعلى موقعين أماميين فى خارجهما ، وهناك فى المنزل المسمى فاشيللو كانت شجاعة الحرس النادرة المستغربة تحت قيادة جياكومو مديتشى الذى كان يكون آخر الباقيين على قيد الحياة من ذوى القمصان الحمر القادمين من مونتيديو هى المحور الذى يدور حوله القتال جميعه ، وإذا قدر للفرنسيين أن يدخلوا روما بهجوم أمامى فقد كان عليهم أن يستولوا على الفاشيللو القائم خارج الباب ينفتح النيران وكتائب الرماة التى توزع الموت والذين يحاربون بالسلاح المصنوع من الفولاذ من مسافات دانية ، وقبل أن ينتهى الحصار كان الفرنسيون قد ضربوا هذا المنزل بالقنابل حتى ضار كومة من الأنقاض ولكنه لم يسقط لهم .

وقد قضى الجيش الفرنسى البالغ عدد أفرادهِ ثلاثين ألفاً من الجنود الأشداء المزودين بعدد من المدافع والأسلحة لا يعد ثمانية عشر يوماً ليتقدم من فيلا كورسينى الى حائط أورليان - وهى مسافة يستطيع الإنسان أن يقطعها مشياً فى أقل من نصف الساعة - وحينما وصلوا الى الحائط فى يوم ٢٢ من يونيو اضطروا الى القيام بهجمات جانبية لأنهم لم يستطيعوا الاستيلاء على الفاشيللو ، ولم ينقطعوا عن ضرب الحصون الداخلية والمدينة نفسها بالمدافع ، وكانت النساء العاملات القويات والأطفال يلتقطون القنابل الحية ويقذفونها فى نهر التيبر وهم يسخرون ، ونسف مكان قيادة غاريبالدى ، ولما تهاوت الحيطان انتقل الى منزل آخر فى الجانب المواجه من الطريق .

وكان الأسبوع الأخير من الحصار مبارزة لا تنتهى بين المدفعية وكان الفرنسيون متفوقين على الإيطاليين فى عدد المدافع ووزنها، ولكن الإيطاليين مع ذلك لم يتوقفوا عن مواصلة إطلاق المدافع ، وهم الفرنسيون الكثير من التحصينات الداخلية ولكنهم لم يستطيعوا تثبيت أقدام جنودهم المشاة ضد الحروب الدانية الهوجاء والاشتباكات التى كان يقوم بها الإيطاليون .

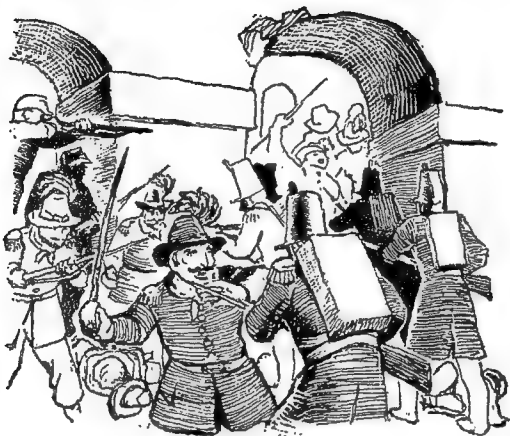
وفى هذا الخضم من الأحداث وفى اليوم السادس بعد العشرين من شهر يونيو ظهرت أنيتا غاريبالدى فجأة فى مركز قيادة زوجها الملقى بالثقوب ، ولم يكن يدرى أنها فى طريقها اليه من نيس ، وكانت هذه السيدة لا تحفل بالبتة بالخطر مادامت فى طريقها لتكون الى جانب زوجها فى مواجهته ، وقد امتلأت نفسه سروراً برؤيتها ، وربما تكون قد زادت إصراراً على الدفاع .

وفى اليوم التالى حينما كانت آخر حصون روما تتداعى اقترح غاريبالدى على متزىنى انتقال الحكومة والجيش الى الناحية الشرقية

ومتابعة الحرب فى الجبال بدلا من انتظار دخول الفرنسيين المدينة ، ورفض هذا الاقتراح كذلك ، وكان متزىنى ومستشاروه قد صمموا تصميمًا أكيدا شديدا على جعل روما تواصل الدفاع حتى النهاية المرة ، ولم ير غاريبالدى وراء ذلك سوى التسليم فغضب غضبا شديدا وحدثت مشاجرة عنيفة بينه وبين متزىنى وقدم استقالته من القيادة •

واستدعى فرقته وسحبها من الجانيكالم وكان ذلك عملا من أعمال اليأس جانبته الحكمة ، ولكن غاريبالدى كان انسانا مثل سائر الناس ولو أن الناس كانوا يقدسونه كما يعبدون الله ، وقد ترك الدفاع فى زعر خلقه، وتملك الرعب روسيللى الذى كان لا فائدة ترجى من قيادته لجيش قد فقد روحه المعنوية ، وكان مانارا هو الذى ذهب الى غاريبالدى وتحدث معه وأقنعه بالعودة ، وكان الفرنسيون عند أسوار المدينة وبدون غاريبالدى ينتهى الدفاع - الذى استغرق شهرا وحفل بأعمال البطولة - نهاية مخزية •

وعند تبليغ الفجر أسرع الناس الى الشوارع لتحية ذوى القمصان الأحمر وهم يعودون الى مواقعهم الأخيرة ، وكان على رأسهم غاريبالدى المغيظ المحنق ، وربما تسقط روما ولكنه لن يستسلم •



الفصل التاسع

نحن الذين على شفا الموت نجيبك

كانت الليلة ليلة اليوم التاسع بعد العشرين من شهر يونيو ،
وكانت المدفعية الفرنسية قد دكت آخر مواقع الدفاع دكا وأحالتها
أنقاضا ، وخندقت مشاة أودينو تحت الجانب الخارجى لسور أورليان ،
وقد حطم السور بضربه المتواصل بالمدافع وكان هذا التحطيم من
الشدة بحيث أحدث ثغرات استطاع أن يرسل منها فرقا من جناحي
الجيش الى شمال الباب وجنوبه .

وكان الفرنسيون محاربين بارعين شجعانا مطيعين ، ولكن آخر الرماة وبقايا الرماحة وذوى القمصان الحمر كانوا أكثر من ند لهم ، وكانت المسألة دائما مسألة العدد .

وصدرت الأوامر الى فرقة فرنسية بالتقدم الى فيلا سبادا ، وهى مقر قيادة غاريبالدى الثانى المحطم فى داخل السور ، وهناك كان مانارا ورجاله قد انتظروا بشجاعة بلغت حد الوحشية والضراوة حاملين بنادقهم فى الظلام الحالك المخيم حتى يستطيعوا أن يروا الملابس التى تميز العدو من الصديق ، وكان غاريبالدى نفسه فى الخارج بالطريق حيث انطلق عند هجوم الفرنسيين وهو يصيح : « تقدموا .. أقبوا .. هذا هو الصراع الأخير » .

ورأى شاهدو العيان غاريبالدى يثب الى الأمام شاهرا سيفه وهو يصيح بنشيد شعبي ، وكان فى غمرة القتال ويضرب حوله بسيفه الثقيل الذى كان يرى فى اليوم التالى وقد غطاه النجيع ، وكان لابسو القمصان الحمر يغشون المعركة خلفه ، وفى آخر ساعات الظلام قبيل تبليج الفجر كانت الساحات أمام باب المدينة قد غصت بجماعة من الرجال يقتل بعضهم بعضا بزج البندقية وبالسنكى وبالرمح والسكين ، وحارب الرماحة الذين جاءوا فى رفقة ماسينا راجلين حتى قتلوا جميعهم على وجه التقريب ، وفى اليوم التالى رأى القواد الفرنسيون باعجاب واشفاق الأرض مغطاة بالأعلام الصغيرة الملصقة بالرمح وهى لا تزال فى أيدي القتلى .

وهكذا كان سقوط روما ، ولم تستمر المعركة بعد ذلك سوى يوم وليلة ، وبعد أن اضطر الفرنسيون الى أن يسلكوا طريقا آخر غير طريق فيلا فاسيشيللو التى لم يستطيعوا زحزحة حمايتها استدعى غاريبالدى مديتشى البطل المقدام وحراس الفيلا الذين دخلوا روما دون

أن يلحقهم عار الهزيمة ، وفى تلك الليلة جدد الفرنسيون هجومهم على فيلا سبادا التى لم تسلم لهم . وهناك فى ساعات الحصار الأخير أصيب لوشيانو مانارا المحبوب من جميع عارفيه وأضرابه بالجرح الذى مات به ، وحاربت فرقة الرماة اللباردية بعد مصرع قائدها حتى صار أفرادها فى الدار المتهمة غير المنهزمة مابين قتيل وجريح .

وقاد غاريبالدى الهجمات الأخيرة فى تلك الليلة مثل الليلة السابقة ونازل جموعا يفوق عددها عدد رجاله ، وكان الفرنسيون يتدفقون أفواجا متتابعة ، واستمرت معركة الموت حتى ظهر اليوم التالى ، وبمعجزة سلم غاريبالدى من الخطر ، ونجا من العطب ، ولما قبل الهدنة ليجمع جثث الموتى من رجاله ويستنقذ الجرحى عرف أهل روما جميعهم أن الحصار قد انتهى .

وتلقى غاريبالدى أمرا بالحضور الى الجمعية حيث كان مجلس النواب الجمهورى يبحث شروط التسليم ، وبرغم توقف اطلاق النار تلكا غاريبالدى عن ترك موقفه وحمل نفسه حملا على الوثوب على جواده وبينما هو يهم بالذهاب اذا به يصاب بصدمة تزيد حزنه على فقد رجاله اشتعالا ، فصديقه الأمين الوفى الزنجى آجيار الذى جاء معه من أمريكا الجنوبية أصابته قنبلة أودت بحياته .

وانطلق غاريبالدى على جواده الى هيكल الكايتول حزين النفس موجع القلب ، وسار الهوينا الى الجمعية كسيرا حينما غادر المعركة ، وكان قميصه الأحمر قدرا قد بللته الدماء والعرق يسيل على وجهه وسيفه ملتو وملتصق فى منتصف الغمد ، ووقف الأعضاء حين دخوله وهو يتقدم الى منصة الخطابة وحيوه هاتفين .

وكانوا يبحثون ثلاث خطط مختلفة لمصير روما ، وسألوا غاريبالدى النصيحة ، أما الحطة الأولى وهى التسليم فان غاريبالدى

رفض حتى مناقشتها ، وكانت الحطة الثانية هي متابعة الحرب في الشوارع والقيام بتنفيذها يعرض كل بناء قائم في المدينة الخالدة للهدم والتحطيم ، وقد رفض غاريبالدی هذه الحطة مثل كل قائد عرفه التاريخ .

وكانت الحطة الثالثة هي الاقتراح الذي سبق له التقدم به قبل ذلك بثلاثة أيام ، وهو الاقتراح الخاص بانتقال الحكومة الى الجبال والاستمرار في الحرب ، ولو أن هذه الحطة اتبعت حينما عرضها في بادئ الأمر وأدلى باقتراحها لكان من الممكن أن يكون معه مجموعة من خيرة الفرق قد أصبحت الآن ملقاة على الثرى بعد أن استمر القتال ، ولقد كان اقتراح هذه الحطة الآن متأخرا ، ولكن لم يكن لغاريبالدی مناص من هذا الاختيار ، ووافقت الجمعية على هذه الحطة موافقة غير رسمية ، ولكن لما كانت روما موشكة على العودة الى حكم البابا بيونونو فانه لم يكن هناك أهمية لما تقررته الجمعية .

ورفض متزینی أن يقر البيان الذي ذكروا فيه أنهم توقفوا عن الدفاع الذي أصبح غير ميسور ، وقدم استقالته وسرعان ما اتخذ طريقه الى لندن في أعقاب ذلك حيث عاش بقية حياته منفيا ، وكان أصلب مكسرا من أن يستطيع الملاءمة بين نفسه وبين أى تعديل لصورة مثله الأعلى ، وكان مصدر وحى للأفكار الكبيرة ولكنه لم يعد بعد ذلك قط الى الاشتراك في الأعمال العظيمة .

دخل الفرنسيون المنتصرون روما دخولا رسميا في اليوم الثالث من شهر يوليو ، وبطبيعة الحال ذهب غاريبالدی قبل أن يشاهد هذا اليوم المحزن ، ولقد صمم على أمره تصميمًا طائشا يائسا ، فأينما كان يذهب هو ورجاله كانت جيوش النمسا وناپولى والبابوية التي استردت سيطرتها واقفة له بالمرصاد ، وبدون حكومة ولا أمة ولا دولة خلفهم



وقف أعضاء الجمعية وهو داخل وحيوه هاتفين

كان لا يمكن أن يعد أنهم أعلنوا الحرب وانما هم جماعة من المشردين الخارجين على القانون يحاربون حرب عصابات غير نظامية ، ولكن الرجال الذين ربطوا مصيرهم بمصير غاريبالدى كانوا لا يستسلمون لأجانب فوق أرض إيطاليا .

وكان غاريبالدى قد صرح فى الجمعية بأنه لا يقبل سوى المتطوعين ، وكل رجل تفرض عليه هذه الحياة المعرضة للأخطار وتجشم المشاق عليه أن يقطع فى هذا الأمر الرهيب برأيه ويعتزم عزمه بنفسه ، وكانت الأمهات والزوجات والحبيبات يتوسلن الى رجالهن ليحلن بينهم وبين الذهاب ، والذين عقدوا العزم على الذهاب مع غاريبالدى كانت تحدوهم على ذلك بواعث مختلفة .

بعضهم كان يريد أن يفر من الشرطة والسجون البابوية . والمحاربون اللومبارديون كانوا لا يريدون العودة الى ميلانو ومعاناة ظلم النمساويين وعسفهم ، وفريق آخر من الرجال جاءوا من مقاطعات نائية وكانوا يريدون أن يكونوا فى حماية الرفقة أثناء عودتهم الى ديارهم ، وبعضهم كانوا يقاسمون غاريبالدى مشاعره ، وفئة أخرى قليلة من المقربين وخلصانه الذين كانوا لا يريدون شيئاً من الدنيا سوى أن يتبعوه ويقاسموه مصيره .

وتطوع أربعة آلاف رجل ، وتلاقوا فى اليوم الثانى من يوليو فى ميدان القديس بطرس الكبير ، وجاء معهم أقاربهم وأكثر من عشرة آلاف رجل من الرومانيين لتوديعهم وتوديع قائدهم ، ومر وقت طويل قبل أن يستطيع غاريبالدى وهو على جواده الأبيض أن يشق طريقه فقد اجتمع حوله الدهماء وهم يحيونه ويهتفون باسمه ويكون حتى بلغوا وسط الميدان ، وهناك بعد أن استمال هذا الجمع الغفير الى التزام الصمت انبعث صوته الرخيم الحفيض مجلجلا بهذه الكلمات :

« ان الحظ الذى يخوننا اليوم سيبتسم لنا غدا ، وانى خارج من روما . وليأت معى هؤلاء الذين يريدون أن يواصلوا الحرب ومجاهدة العدو الأجنبى ، وانى لا أعد بدفع شئ ولا بسكن وماوى ولا زاد ومؤونة ، وانما أعد بالجوع والعطش والسير القهرى والمعارك والموت ، فليتبغنى من يحب ايطاليا لا بلسانه فحسب وانما بقلبه » .

وسار غاريبالدى على جواده متمهلا بين الجموع الحاشدة المجهشة بالبكاء بعد أن أخبر المتطوعين بالاجتماع للمضى فى السير فى نهاية اليوم ، وفى ذلك الصباح رفض غاريبالدى بتأثر شديد سفينة قدمها له السفير الأمريكى لتحمله الى أى مكان يريد أن يذهب اليه ، ولما أقبل المساء اجتمع المتطوعون فى ميدان لاتران ، وكان بينهم البقية القليلة الباقية من جنود الحصار الشجعان وهم أفراد الرماة والرماحة من بولونيا الذين تركوا قوادهم وزملاءهم قتلى شهداء كراما ، وكان الباقون من فرقة غاريبالدى هناك كذلك ، وحتى مئات قليلة من فرسان جيش البابا والثائرين خرجوا من اسطبلاتهم التى حبسهم فيها ضباطهم لينضموا الى جيش غاريبالدى فى مسيره .

ومن ناحية أخرى فان بعض الذين حاربوا مع غاريبالدى لم يتطوعوا فى هذه المرة ، وربما كان عندهم شئ ليعيشوا من أجله أجدى عليهم من هذا المصير المظلم الذى وعد به غاريبالدى ولكن أقرب الناس اليه وأعزهم عليه كانوا معه ، فقد كان هناك الأب أوجوباشى فى قميصه الأحمر ومعه صليبه ، والوطنى الرومانى برونتى ومعه ابنه البالغ من العمر ثلاث عشرة سنة ، واختار مؤرخ سويسرى أن يتبع غاريبالدى بدلا من أن يعود الى داره الهادئة ، وكتب بعد ذلك قصة التقهر والانسحاب .

وأخيرا كانت هناك أنيتا فى قميصها الأحمر مثل سائر أفراد الفرقة وقد قصت شعرها الطويل وتبذت وهى راكبة جوادها كاحدى نساء الأمازون ، وقد رفضت أن تترك بيينو وتعود الى مأمنها فى نيس . وبالرغم من أنها كانت على وشك أن تضع مولود آخر فانها احتملت بدون اكترات تلك الأيام المنهكة والليالى المسهدة وهى فوق ظهر جوادها ، وصبرت للحرارة اللافتة والسغب والتعرض للخطر وتجتشم المتاعب ، وكانت لا تكف عن الابتسامة المشرقة ومد يد المساعدة لمن هو فى حاجة اليها ، وكان الجنود يعبدونها .

ولما علوا هؤلاء الجوالون ظهور خيلهم كان ضوء النهار موليا ، وقد كانوا ذاهبين الى الحظر ومقدمين على مصير مجهول، ولكن المكرويين الذين تخلفوا كانوا سيسبتيقظون فى اليوم التالى ليعانوا سنوات أكثر تستبعدهم فيها شرطة بيونونو وجواسيسه وسجونته وخلفاؤه الأجانب .



الفصل العاشر

الانسحاب من روما

كانت فينيسيا هي قصد غاريبالدي ، فمنذ أكثر من سنة نارت هذه المدينة الجميلة ذات القنوات على النمسا ، وكانت مازالت ثابتة للحصار الشديد القاسي ، ولم يستطع النمساويون التغلب على مقاومتها وتخزيده شوكتها ، واعادتها تحت سيطرتهم . وبينما كان نظر العالم متجها الى روما كان المدافعون عن فينيسيا قد أخذت تتراخى عزيمتهم ، والآن وقد فقدت روما وتداعيت الجمهورية التوسكانية القصيرة الأجل أصبحت فينيسيا آخر مكان يجاهد فيه الأحرار الايطاليون .

واعتزم غاريبالدى أن يعبر سلسلة جبال الأبينايين الممتدة من شمال إيطاليا الى جنوبها متجها من الشاطئ الغربى الى الشاطئ الشرقى اذا تيسر له الافلات من مطاردته ، ثم يتجه بعد ذلك بجيشه شمالا لمساعدة أهل فينيسيا ، وأمل أنه وهو فى طريقه يستطيع أن يثير سكان إيطاليا الوسطى على الدول المحتلة ، وربما كان من اللازم له أن يعرف أن الناس كانوا متعبين من الحرب والسياسة ؛ فالفلاحون كانوا مرعوبين ، وكانوا يريدون أن يتركوا ليستثمروا فى عملهم الصيفى ، وقليلون كانوا ميالين الى المغامرة بحياتهم بوصفهم ثائرين أو بوصفهم متهمين بجريمة ابواء الخارج على القانون أو مساعدته فى طريقه .

وخرج رجال جيش العصابات الصغير من روما وليس معهم سوى عدد قليل من العربات ومدفع صغير وساروا ليلا وقد تقدمتهم جماعة من الفرسان الكشافة فى صمت تام ، وكان هذا اللون من ألوان الحرب هو الذى يجيده غاريبالدى ، وتحرك بسرعة ولم يسر فى طريق مستقيم وإنما كان يتحرك فى خطوط متعرجة ، ويضاعف الخطوات ، ويخادع الأعداء ويمكر بهم ، حتى راجت اشاعات فى الريف مضمونها أن جيش غاريبالدى عدده ضخم ، وكانت الجيوش الفرنسية والنمساوية والبابوية وجيوش مملكة نابولى - ومجموعها جميعا حوالى خمسة وستين ألفا - تحت قيادة ضباط قساة غلاظ ميالين الى الانتقام منتشرة كشبكة الصياد للقبض على العصابة الخارجة على القانون التى بدأت وعدد أفرادها أربعة آلاف ، ولكن عددها أخذ فى التناقص منذ الليلة الأولى من سيرها .

وكان هذا التناقص فى العدد أشد ايلاما لنفس غاريبالدى من احتمال مشاق السير ، وتوالت عليه نوبات خيبة الأمل ، فها هو ذا يرى رجاله يهجرونه وينفضون من حوله ، وكان هناك ماهو شر من ذلك

وأشد اثاره للألم فى نفسه وهو وجود خونة بينهم ، وهم فريق من الضباط باعوا أنفسهم للنمسا ٠٠٠ فلماذا أصاب أبطال روما ؟ وأين ذهبت قدرته على الإيحاء لرجاله ؟ وحتى الشجعان ذوى الحفاظ الموالين له اختفوا ، منهم من فقد فى أفياف الجبال ، أو وقع فى أيدي النمساويين ليدنق ألوان العذاب ويجلد أو يقتل .

وكان هذا السير من الشاطئ الغربى الى الشاطئ الشرقى يقتضى عبور جبال الأبينين السلسلة الفقرية لاطاليا فى أعلى أجزائها ، وقمم هذه الجبال الجرد الوحشة وأوديتها لايزال اجتيازها من أشق الأمور على الجيوش حتى اليوم ، وقد عبرها غاريبالدى وأنيثا ورجالهما فى وقدة الصيف وحمارة القيظ حيث يضاعف الجفاف الشديد العذاب ويطيل المحنة ، وفى الصيف لا يكاد المطر يسقط فى ايطاليا الوسطى ، وتجف مياه الجدول ، ويندر وجود أكثر من عين من عيون الماء أو بئر فى كل قرية بدائية ، وفى بعض الأحيان تنضب مياهها ، ولنتصور فى مثل هذه الظروف كيف كان يبدو للفلاحين المستيقظين فى الفجر هؤلاء الجماعة من الغوغاء القذرين الجفاة فى الأسمال الرثة وقد جاءوا فى الليل ، يحفهم الصمت ، وقد برح بهم الجهد ، ولوحهم الظمأ ، فهم يطلبون الماء والرجال والحيل .

وفى أول الأمر كان القرويون على طول الطريق يساعدونهم فى غير تحفظ ، ولكن مساعدة هؤلاء المطاردين المشردين أخذت تقل شيئا فشيئا ، ولم يكده ينقضى شهر يوليو حتى وصلوا الى أماكن لا يسمح لهم أهلها حتى بالوقوف التماسا للراحة ، وكان لابسو « البذلة » البيضاء من النمساويين منبئين فى كل مكان ومستعدين دائما أن يثبوا بالمال كل من يخون غاريبالدى . وبطبيعة الحال كان هناك قوم شجعان وطنيون حذروه وجعلوه على علم بهذه المحاولات ، ولم يألوا جهدا فى مساعدته ، ولكن بعد منتصف شهر يوليو صار السير معركة

يائسة فى وجه خطر متزايد وأمل ألح عليه الضعف ، وكان لمحاربة النمساويين أقوى الأثر فى ذلك •

وفى آخر الشهر رأى غاريبالدى أن الأمل فى الوصول الى فينيسيا ضعيف ، ومتى وصل الى شاطئ البحر الادرياتيكي كان سيجد الطريق الى الشمال على شاطئ البحر المنبسط معكم الحراسة بحيث لا تكون هناك فرصة للافلات من شبكة المراقبة النمساوية ، وكان رجاله الذين تناقص عددهم حتى صاروا لا يزيدون عن ألف وخمسمائة من الصعاليك المثلومى العزم والذين بلغوا أقصى حدود الاحتمال البشرى ، وكان هناك ماهو أشد من ذلك فكانت أنيتا التى قاسمته باهتمام هذه الأخطار مريضة بالحمى ولم يكن هناك سوى عمل واحد •

فعلى مسيرة اثنى عشر ميلا من شاطئ الادرياتيكي جمهورية سان مارينو ، وهى رأس دبوس فى خريطة إيطاليا ، وقد احتفظت باستقلالها منذ العصور الوسطى ، وبوصفها منطقة محايدة كانت هى المكان الوحيد الذى يستطيع غاريبالدى أن يلتمس فيه الحماية ، وفى باكورة اليوم الأخير من شهر يوليو اقترب منها وكان ممتطيا جواده على رأس أتباعه الذين خارت عزائمهم بعد مناوشة أخيرة للهرب من النمساويين ، وتبدل شمل الغاريبالدين على وجه التقريب بعد فقدان آخر معداتهم ، وتركوا المدفع الوحيد الذى كان معهم بعد أن سحبوه طول الطريق •

وفى سان مارينو كتب غاريبالدى وهو حزين فى صباح ذلك اليوم آخر أمر أصدره وقد تضمن تسريح رجاله وإعفاءهم من كل التزام وتركهم أحرارا فى العودة الى حياتهم الخاصة ، وقبلت حكومة الجمهورية الصغيرة مفاوضة النمساويين لتركوا رجال غاريبالدى

يعودون الى ديارهم آمنين لقاء تسليم أسلحتهم ، ولم يف النمساويون الحونة بمعهدهم أثناء عودة رجال الفرقة الى بلادهم ، فقد عذبوا الكثيرين وقتلوا البعض وسجنوا فريقا منهم .

ولكن القائد - وقد صنع كل مايستطيع صنعه من أجل رجاله - كبر عليه أن يطلب من النمساويين شيئا لنفسه ، وكان الوقت قد تجاوز منتصف الليل ، وكان النمساويون يحومون حول أسوار سان مارينو التي تحدى بها من ناحية أعاليها الصخرية كما تلوب الذئاب . وقد ظل غاريبالدى فوق سرج جواده ثمانيا وأربعين ساعة ، وكان أشد من ذلك على نفسه أن زوجته كانت كذلك طوال هذه المدة فوق سرج جوادها ، ولم يذق راحة قط ، وقد استراحت هى فى منزل قوم أشفقوا عليها ، وتوسل اليها أن تظل عندهم ، ولكنها رفضت الاستماع اليه .

كان غاريبالدى جالسا على حجر خارج المقهى الذى تناول فيه عشاءه يقرأ خريطة على ضوء مصباح واذا به يشب فجأة ويصيح بأتباعه ويركب متجها الى باب المدينة ، وكان على خالصته أن يبتوا فى هذه اللحظة فى مسألة : أيمكنون أم يتبعونه ؟ واندفع خلفه قرابة مائتى رجل منهم وتبعته أنيتا بطبيعة الحال ، ولم يعدهم بشيء أكثر من الموت والنفى .

وتسللوا فى ظلمة الليل وقد لاذوا بالصمت من الحصار النمساوى المضروب حولهم متجهين نحو قاع نهر جاف فى الشمال ، وكان هذا الطريق يقضى الى الودى الضيقة الرهيبة والأخاديد الواقعية بين هذه المنطقة والأرض المنبسطة الى جانب الشاطئ ، وكان من الخطورة بمكان أن يجدوا طريقهم فى الظلام متبعين أحد الأدلاء المحليين فى أعالي أجراف زلقة وممرات كالخيوط منخفضة الى جانب هاويات ،

ويضاف الى ذلك انه كان هناك عدو يطاردهم من الجانبين ، وظلوا طوال اليوم التالى مشغولين بشق طريقهم فى هذه النواحي الخطرة وحالة أنيتا تزداد سوءا وهى لا تكف عن طلب الماء ، وأخيرا فى نهاية اليوم الأول من شهر أغسطس عبروا نهر دوبيكون وطالعوا البحر الادرياتيكي .

وكان لا يزال أمامهم طريق طويل ليعبروا المستنقعات والبطائح المتاخمة للبحر ، وكانت هذه المنطقة فى مقاطعة رومانيا التى كان منها معظم رجال فرقة غاريبالدى المفقودة ، وأمل غاريبالدى أن أهل هذه المنطقة سيعينونه على تجنب النمساويين ، وفى مدينة شيسيناتيكو كان من الضروري ترك الحيل وركوب الزوارق ، وكانت هذه مخاطرة رهيبة غير مأمونة ، وكان العامل الوحيد الذى يقلل من خطرها هو أن غاريبالدى نفسه كان قبل كل شىء بحارا يحسن قيادة الزوارق .

وفى قارب الصيد الذى قاده زوجها كانت أنيتا راقنة وقد بلغ منها المرض وبرح بها الظمأ ، وكانت بقية الجماعة تتبعه فى القوارب التى استولت عليها وكان الجميع تحت رحمة القمر وهو بدر مكتمل الضوء باهره ، وفى أثناء الليل مرت بهم سفينة طوافة تحمل فصيلة من النمساويين وكشفت أمرهم ، وعند مطلع الشمس راقب جماعة من البحارة على الشاطئ - وقد اشتد جزعهم - الزوارق الثلاثة الرئيسية وهى تمر بسرعة وتهرب متجهة الى الشمال ، ولكن الزوارق الباقية وقعت فى قبضة النمساويين .

وأسرع غاريبالدى بزوارقه الثلاثة الى ناحية الشاطئ بين كثنان الرمل ، وكان يحرسه على الشاطئ رجل وطنى اسمه نينو بونيت حارب اخوته تحت قيادة غاريبالدى فى روما ، وكان بونيت يعلم ماهو حادث ، ولولا المساعدة التى قدمها عن طريق اتفاقه مع المزارعين القريبين للقى غاريبالدى مصير أوجوباسى ، فقد كان هذا الرجل الشجاع الذى ظل مخلصا الى النهاية فى أحد الزوارق الثلاثة التى



ونحمل غاريبالدى من قارب الصيد زوجته المشرفة على الموت .

نجت من القبض عليها ، وأشار عليهم غاريبالدى بأن يتفرقوا
 ويبدلوا ماوسعهم من الجهد فى الهرب ، ولكن النمساويين كانوا فى
 كل مكان ، وسرعان ما ألقوا القبض على الأب باسى وأطلقوا عليه النار
 فى بولونيا ، وقد ظل اسمه بها موضع التجلة والتكريم بوصفه من
 الشهداء منذ ذلك الحين .

وكان غاريبالدى نفسه لا يستطيع أن يسير بسرعة أكثر مما
 يسمح له بها حمل أنيتا التى لم تعد قادرة على السير ، والرجل
 الوحيد الذى سمح له غاريبالدى بالبقاء معه هو صديقه المخلص
 ليجيرو الذى كان لا يزال يعرج من أثر الجرح الذى أصابه فى روما ،
 وهكذا كان يسير الرجل المطارد متعثرا وزوجته تعاني سكرات الموت
 بين يديه وصديقه الوحيد يسير طالعا الى جانبه ، وكان القائد
 النمساوى قد أذنر بتوقيع عقوبة الاعدام على كل من يجترئ على مد يد
 المساعدة للرجل الذى أقسم على قتله ، وفى هذا الاعلان ورد البيان
 الخالى من الشهامة وهو أن الهارب يمكن الاستدلال عليه بوجود امرأة
 حامل قد شارفت الوضع معه .

وأوى المزارعون الثلاثة الهاربين وأرشدوهم فى عبور المستنقعات
 والكثبان معرضين أنفسهم لخطر الموت ، وقد اضطرت هذه الفئة القليلة
 مرتين حينما ظنت أنها قد وجدت ملاذا مؤقتا الى أن تعاود الهرب
 لاقتراب النمساويين منها . وأخيرا فى مساء اليوم الرابع من
 أغسطس بعد عبور أجده المستنقعات فى زورق لقيتهم عربة حملوا بها
 أنيتا على حشية لنقلها الى مزرعة ألبان فى مانديريولى ، وفى الضوء
 الواهن حملوها الى المزرعة وبينما كانوا يضعونها فى رفق على الفراش
 رأى زوجها أن روحها قد صعدت الى بارئها ، وكان هذا هو الموقف
 الوحيد فى هذه الأسابيع العصيبة الذى خذلته فيه سيطرته العسكرية
 على نفسه وأفلت منه زمامها فقد انحلت عقدة صبره واسترسل فى
 بكاء مرطويل .



الفصل الحادى عشر

العودة إلى المنفى

كيف يستطيع الحظ أن يتخون الانسان أكثر من ذلك ؟ ففي شهر واحد فقد غاريبالدى روما وفرقته وآخر أتباعه وزوجته المخلصة الوفية ، وكان وحيدا مشردا خالى الوفاض ، والنمساويون يجدون في طلبه الى حد أن بونيت الطيب نصحه بألا يترث حتى لحضور دفن أنيتا •

وعاد مع رفيقه الوحيد ليجيرو الى التغفل فى المستنقعات الملائى بالبعوض ؛ وتسلسل منها عائدا عبر السهول المشتعلة الى اجتياز

الجبال الجرد الموحشة ليصل الى شاطئ توسكانيا الغربى حيث يستطيع أن يركب سفينة الى بدمونت ، وهناك كان الجزء الوحيد من ايطاليا الذى لم يكن فيه غاريبالدى مطاردا .

ولكنه حينما وصل الى بدمونت - بعد أن تعرض لأخطار تملاً الصدر هولا - لم يستطع البقاء فيها آمن السرب ، فقد كان الملك الشاب فيكتور عمانويل لا يزال مقيدا بشروط معاهدة نوفارا التى جاءت به الى العرش ، ولم يجترئ على تحدى النسمائين فى شجاعة الى حد يسمح بايواء غاريبالدى ، وكان فى حاجة الى الوقت ليوطد مركزه ويستعد للجولة الثانية فى المعركة الطويلة لأجل تحرير ايطاليا ، ولذلك بعد ان سمح لغاريبالدى بزيارة خاطفة الى نيس لرؤية أولاده الذين فقدوا والدتهم أبعد الرجل المحزون وحمله على العودة الى تجرع كأس النفى المرة .

وتوالت الصدمات ، فلم يسمح لغاريبالدى بالنزول فى تونس أو جبل طارق أو أى ثغر آخر من ثغور البحر المتوسط حيث كان يؤمل أن يجد عملا بوصفه قبطانا بحريا ، وأصبح الرجل الذى كان بطلا فى نظر نصف سكان العالم لا يستطيع أن يجد مكانا يلقي فيه رأسه ، وأخيرا دعا قنصل بدمونت فى طنجة الشريد المنفى الى قضاء بضعة أيام فى داره ، ومن هناك فى يونيو سنة ١٨٥٠ أبحر غاريبالدى مرة ثانية الى الدنيا الجديدة ، وفى هذه المرة ذهب الى الولايات المتحدة .

ونراه بعد ذلك فى جزيرة سستاتن يعيش فى كوخ أبيض مصنوع من ألواح من الخشب يملكه ايطالى صانع شمع اسمه ميكشى وقد اتخذ غاريبالدى مساعدا له ، وكان العمل المنوط بغاريبالدى هو نقل البراميل الثقيلة المלאى بالشمع من مرسى الزورق الذى كانت تصل اليه وتفرغ الشمع فى المراحل الموجودة بالساحة ، وكان

غاريبالدی حينذاك رجلا في منتصف العمر يشكو من داء المفاصل (الروماتزم) ولكنه كان يقوم بهذا العمل المهيئ ويتقاضى لقاءه أجرا زهيدا دون تذمر ، وتعلم قليلا من اللغة الانجليزية وصار له أصدقاء وكان موضع الاعجاب الشديد للششم الهادئ الرزين الذي احتمل به الأرزاء التي رماه بها الدهر .

ولكنه لما ذهب الى أحواض السفن في جزيرة ستاتن يلتمس العمل في السفن بوصفه بحارا عاديا لم يقبل أحد أن يستخدمه ، وظل يعمل عند ميكنتشى حتى جاء الى نيويورك صديق له قديم سنة ١٨٥١ وأخذ معه في رحلة قصيرة لبعض الشئون العملية الى أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية .

وكانت هذه الرحلة نقطة تحول في حياته ، ففي ليما بيرو اسندت اليه قيادة سفينة شراعية حمل سنوى الى الصين والعودة منها ، وهذه الرحلة حملته الى البحار الجنوبية واستراليا ، ولكن لم تكن هناك مسافة من التباعد والامتداد في العالم بحيث تنسيه ايطاليا وقطعه على نفسه عهدا بأن يعود اليها يوما ويحارب لتحريرها .

وفي سنة ١٨٥٣ سار في رحلة أخرى حول رأس هورن الى نيويورك ، وهناك عهد اليه بقيادة سفينة تجارية ذات قلعين اسمها « كومولث » ، وكانت هذه السفينة تحمل حملا الى نيوكاسل في انجلترا لمبادلتها بفحم تحمله الى جنوا ، وهكذا كانت عودة غاريبالدی الى ايطاليا الحبيبة في ربيع سنة ١٨٥٤ .

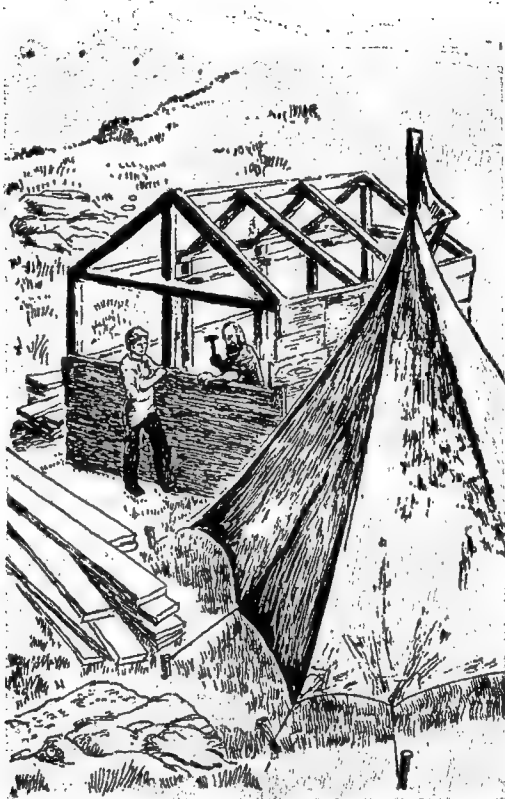
وقضى شهرا في طريقه بانجلترا ، ورأى متزيني مرة ثانية ، وظهرت كل وجوه الخلاف القديم بينهما . وكان غاريبالدی مستعدا لاستئناف الحرب ، ولكن على شريطة أن يكون ذلك عندما يشعر بأن الوقت المناسب قد حان ، وكان متزيني على اتصال دائم بالوطنيين

والثائرين الذين يعملون خفية فى جميع أجزاء ايطاليا الأسيرة ، وقال ان صقلية ناضجة للثورة وأراد أن يحمل غاريبالدى على الذهاب اليها ليقود الثورة ، ولكن غاريبالدى كان يعلم أن متزىنى غير عملي ولا واقعى ، فأجاب بأنه سيذهب الى هناك حينما يرسل اليه أهل صقلية الدعوة •

وهكذا عاد الى ايطاليا بعد حوالى خمسة أعوام واستقر فى نيس مع أولاده ، وكانت المسائل السياسية قد هدأت هدوءا كافيا وذهبت حذتها ، ولذلك أصبح الأمر الثانى الصادر بنفيه لاغيا مثل الأمر الأول ، وترك فى سلام ، ومات أخوه بعد ذلك بقليل وترك له مقدارا مناسباً من المال ، وبهذا المال مضافا اليه ما استطاع أن يقتصده فى مدى ثلاث سنين - وهو يعمل قبطان سفينة - صمم على أن يبني لنفسه ولأولاده منزلا •

واختار لذلك جزيرة كابريرا - وهى جزيرة صخرية موحشة فى أقصى الطرق الشمالى لجزيرة سردينيا الواسعة - واشترى غاريبالدى لنفسه هناك مكانا موحشا منعزلا تمر به الرياح العاصفة العنيفة ولا يمكن استصلاحه للزراعة الا ببذل جهود شاقة ، وكان لا يمكن الوصول اليه الا بزورق يأتى من اليابسة مرة واحدة فى الشهر ، ولم يكن هناك منزل قائم فى الأرض التى اشتراها غاريبالدى ، وعاش فى أول الأمر مع ابنه مينوتى فى خيمة كانت الرياح فى بعض الأحيان تحملها بعيدا فى الليل ، فى الوقت الذى كان يبني فيه مكوخا خشبيا مؤقتا أحضر فيه تريسيتا وريكشيوتى ، وبني بعد ذلك غاريبالدى بمساعدة أولاده وأصدقائه البيت الأبيض الذى عاش فيه بقية حياته ، وكان هناك ينحت الصخر ويفلح الثرى الجعد ويتعهد خرافه ومعزمه •

وفى الوقت نفسه كانت تحدث فوق أرض ايطاليا المضطربة أحداث هامة •



• على هذه الجزيرة الصخرية أقام هو وابنه كوخا صغيرا •

وظهر قائد جديد في الحركة التي قدر لها أن تخلق ايطاليا الحديثة ، وكانت هذه الحركة تسمى حركة الاحياء ، وكان معنى ذلك أن تولد ايطاليا من جديد بمعنى أوسع كثيرا من المعنى السياسي ، كان معنى ذلك خلق روح جديد من القوة والكرامة القومية في جميع نواحي الحياة الايطالية ، وقد عبر الأدب والفن عن هذه الروح تعبيرا قويا وظهرت آثارها في جميع الايطاليين ولم يشذ عن ذلك غير الذين كانوا في أقصى درجات التخلف •

وكان أحدث الشخصيات السياسية البارزة في هذه الحركة هو الكونت كامبيللو كافور رئيس وزراء مملكة بيمونت ، وكان من الأشراف على خلاف متزيني وغاريبالدی ، وكان رجل دولة من الطراز الأول بارعا وقديرا وسياسيا مجربا ورجلا عمليا ودساسا اذا اقتضى ذلك الأمر ، وكان ولاؤه الأول للملكه فيكتور عمانويل لا للشعب الايطالي ، وكان هدفه أن يصبح هذا الملك حاكما للايطاليين جميعا •

وعمل كافور كل حيلة معروفة في السياسة لتحقيق هذه الغاية ، وكانت المحالقات بين الأمم حينذاك جزءا لا يتفصل عن الاستعداد للوقوف في أحد الصفين المتنافسين وهو الوقوف الذي يحدد مصائر الدول والرجال كما هو الآن ، وكان كافور من الدهاء بحيث رأى أن العدو الأكبر ، من بين عدوى ايطاليا الأجنيين ، هو النمسا ، وأن فرض طرد النمسا من ايطاليا لا يمكن تحقيقها الا بالاستعانة بالعدو الآخر القديم لايطاليا وهو فرنسا •

ولذلك عقد تحالف مع نابليون الثالث الذي حارب المدافعون عن روما في سنة ١٨٤٩ سياسته الغادرة وجيوشه الجرارة الكثيفة ، وقد أثار ذلك حنق غاريبالدی حينما سمع به ، ولكن كافور لم يحفل بذلك ، وبالرغم من أنه كان على ما يبدو قليل التقدير لرجل الشعب

فانه كان يعرف قدرة غاريبالدى على أن يلهم الرجال المحاربين ويوحد صفوفهم حوله ، وعرف الداهية كافور أن مايعمل هو الاستفادة من غاريبالدى حينما يحتاج الأمر الى عبقريته فى حرب العصابات ، وربما بدا له أن يفعل ذلك وهو يتظاهر بأنه لا يدري من الأمر شيئا .
أما فى باقى الوقت فان غاريبالدى يترك فى عزلته بجزيرة كابريرا .

وكانت خطة كافور المباشرة بعد عقد المحالفة الفرنسية هي تحرير لمباردى وفينيتيا من النمساويين ، وذلك بأن يستحدث نوعا من الهجوم النمساوى على بدمونت الذى يبدو أنه وقع بغير استفزاز والذى يعجل بنشوب الحرب ، وراقبت أوروبا هذه الحيل فى شيء من القلق، ولم يكن هناك انسان من الحماقة بحيث يعتقد أن فرنسا تساعد على خلق ايطاليا قوية فى حين أن سياستها الحقيقية كانت قائمة على منع أى أمة مفردة من أن تصبح قوة جديدة فى القارة ، وقد كانت النمسا مصدر تعب كاف لفرنسا ، وقد كانت كذلك منذ عهد نابليون الأول .

وكانت فكرة امبراطور الفرنسيين هي أن ايطاليا يجب أن تصبح مجموعة من الولايات بينها اتحاد فيدرالى يربطها بعضها ببعض ربطا غير وثيق ، وأن تحرر من النمسا ولكنها تكون تحت حمايته وحماية البابا ، وبدمونت وحدها هي التى تظل كما كانت قطعة مستقلة فى شبه الجزيرة ، وكان الداهية كافور لا يرى بأسا فى بقاء هذا اللون من التفكير فى ذهن نابليون الثالث طوال مدة الانتفاع به فى تحقيق أهدافه .

وقرب انتهاء سنة ١٨٥٨ بدأت خطة كافور فى النضج ، وقد شجع الوطنيين الذين يعملون فى الخفاء فى كل أنحاء ايطاليا على التسلل الى بدمونت وتسجيل أسمائهم فى قوائم جيشها ، وقد وفد عليها ألوف من المتطوعين ، وعمل كافور على أن يثير هذا وأمثاله من الاستفزات النمسا الى الاحتجاج والتحذير ، وصارث الحرب وشيكة

الوقوع ، وأرسل كافور ثلاث مرات فى السر الى « ناسك كابريرا » .
وفى مارس سنة ١٨٥٩ جاء غاريبالدى الى تورينو ليتلقى الأوامر
الاخيرة ، والحادم الذى أعلن مجيئه قال ان الزائر رفض أن يذكر
اسمه .

« انه يحمل فى يده هراوة وقبعة كبيرة ويقول انه على موعد .
فقام كافور واقفا وقال : «أحضروه» . ودخل رجل قد لوح الجو وجهه
ثابت العينين ، تبلغ سنه الواحدة بعد الخمسين ، له لحية سوداء
تشوبها شعرات بيضاء ، ويدان أحالهما العمل اليدوى المتواصل الى
يدين خشنتين ، وتلقى فى هدوء الأوامر الموجهة اليه وهى الترخيص
له باعادة تكوين فرقة المتطوعين الغاريبالديين ، ومن خصائص كافور
المميزة أنه أعطى غاريبالدى هذه القيادة المستقلة بدلا من أن يلحقه
بجيش بدمونت ، وهذا يجعل لغاريبالدى أكبر تأثير فى الناس فى
جميع أنحاء ايطاليا ويدعو الذين سبق لهم أن حاربوا تحت راية
غاريبالدى الى مناصرة القضية .

وبعد مقابلة غاريبالدى لكافور أخذ للمثول بين يدي مليكه
فيكتور عمانويل ، وذابت المزارة والحقد القديم والنفي ونكران الجميل
فى حرارة ولائه للملكه وسروره لأن ساعة العمل قد حانت .

وذهب غاريبالدى الى جنوا فى هذه الليلة وأرسل الدعوة الى
رجاله ، فأسرعوا اليه واثالوا عليه من كل فج ، ضباطه القدامى
مديتشى ونيويكسيو وكوسنز وكل الباقين على قيد الحياة من الذين
حاربوا فى روما واشتركوا معه فى الانسحاب الرهيب ، ولم يكده
يتخلف منهم أحد ، وفى اليوم السابع والعشرين من شهر ابريل غزت
النمسا بدمونت ، وهو ماكان يعمل كافور الحيلة لوقوعه ، وأعلنت
الحرب ، وقاد غاريبالدى رجاله لطرد العدو من أرض ايطاليا ، وتقدمت
فرقة غاريبالدى هذه المرة على نغمات نشيد غاريبالدى الذى أصبح
بعد ذلك نشيدا قوميا .



الفصل الثاني عشر

تحرير لمباردي

أقبل الشبان من جميع أنحاء إيطاليا الشمالية وإيطاليا الوسطى على الانضمام الى غاريبالدى وعصبته من المجاهدين المدربين الموثوق بهم، وجاءوا جميعا وقد امتلأت نفوسهم حماسة لقضية تحرير إيطاليا ، وكان بعضهم فقيرا ليس عنده ما يقدمه سوى قوته وشجاعته ، وكثير منهم كانوا من أبناء الأغنياء والأسر الوطنية فى ميلانو وجنوا التى ربت أبنائها على عبادة بطل روما ، وهؤلاء الشبان المتطوعون أحضروا معهم أسلحة جيدة وقرايىنات أعدتها لهم آبائهم ، وكان هذا من الحظ

الحسن لأن الادارة الحربية فى بدمونت كانت تستشعر الغيرة من شهرة غاريبالدى وتنفس عليه قيادته المستقلة ، وقد تعمدت اغفال امر كافور بتزويده بالأسلحة اللازمة والمؤونة وكانت الفرقة الجديدة تسمى فرقة صائدى الألب ، وكانت مكونة من ثلاثة آلاف مقاتل موزعين على ثلاثة أقسام ، وكل قسم حول نواة من الضباط القدامى والمدربين الذين حاربوا فى روما ، ولم يرتد أفراد الفرقة هذه المرة القمصان الحمر لأن الفرقة كانت تحارب فى خدمة بدمونت ، وكان غاريبالدى يلبس كسوة قائد فى الجيش البدمونتى ، وأعطيت لرجاله بذلات كالتى يرتديها الجنود النظاميون ، وكان هذا هو كل ما أعطى للفرقة .

أما الأسلحة التى زودت بها الفرقة فكانت أسلحة من الطراز القديم القريب المدى والذى بطل استعماله ، ولم تعط لها مدافع ولا خيل ، وكان مع الفرقة خمسون حصانا للاستطلاع جاء بها أصحابها المتطوعون ولم يكن هناك خيل ولا عربات لنقل الجرحى ولا مستلزمات المستشفيات ، ولم يكن هناك تعيينات للفرقة على الإطلاق ، وكان الرجال يطمعون فى مساعدة السكان المحليين الذين كانوا يعجبون بهم ، وكان هذا هو حال جنود غاريبالدى على الدوام .

والسلاح الوحيد الجيد الذى صرف لكل جندى هو السونكى (حربة البندقية) ، ولذلك كان القتال بالأسلحة الفولاذية الذى يشتبك فيه الجنود اشتباكا متلاصقا هو القتال الذى برز فيه صيادو الألب ومعظمهم من نابتة الشبان الذين نشأوا فى المدن وقد تغلبوا على رماة التيرول والجيوش المجرية المحترفة فى الجيش النمساوى .

وبعد تكوين الفرقة بثلاثة أسابيع وتدريب أفرادها تدريبا سريعا ذهبوا الى الألب فى شمال ميلانو للقيام بما عهد اليهم ، وهو

ازعاج الجيوش النمساوية المتقهقرة والتي هزتها فى سهل مباردى جيوش بدمونت وفرنسا وأرغمتها على الارتداد الى ممر برينر ، وكانت المعركتان الكبيرتان فى هذه الحرب الصغيرة هما معركة ماجنتا ومعركة سولفرينو ، ولقد اشتهرتا فى التاريخ ، ولكن لولا صنيع صيادى الألب الذين كانوا ينتظرون متأهبين لسحق النمساويين وهم يتجهون الى الشمال لما كان لهاتين المعركتين شأن .

وكانت المنطقة الجبلية جميعها ملأى بالشرطة النمساوية ، ولم يكن عمل غاريبالدى مقصورا على مطاردة الجيوش المنهزمة ؛ فقد كان عليه كذلك أن يجلى المحتلين عن مدن مباردى فى أقصى الشمال التى طال احتلالهم لها، وهذه المدن تمتد من بحيرة ماجيورى الى بحيرة جاردا وهى تشبه الحزام حول الجزء الأعلى من ايطاليا ، وهذه المدن هى فاريز ، وكومو ، وليككو ، وبرجامو ، وبرسشيا .

وأهل هذه المدن ومنطقة البحيرات الجميلة التى تشملها شجعان وجبليون صلاب العود ، وتتكون منهم اليوم أحسن الجيوش الايطالية ، وقد امتلأت نفوسهم حماسة وعمهم الابتهاج وشعروا بالعزة والكبرياء لأن غاريبالدى قد أرسل الى ديارهم ، وساعدهم مساعدة محبى الحرية المتحمسين لها المتفانين فى حبها . وكان الفلاحون المحليون يعملون مرشدين فى ممرات الجبال المضلة ويدلون القاثين بالهجمات الخاطفة على الطريق ، وكانت طريقة الهجوم الخاطف هى أسلوب غاريبالدى فى محاربة القوات التى تفوقه عددا .

وكان أول أمر يصدره القائد حينما يتقدم فى المنطقة الجبلية هو أن يتركوا خلفهم مزادهم التى تعوق حركاتهم ، وألا يحملوا معهم شيئا أكثر مما يمكن ادخاله فى أكياس الخبز والجيوب الواسعة الذى أمر بأن تخطط وتلصق فى كساويهم ، ولذلك اكتسبوا السرعة وخفة

الحركة ، وبطبيعة الحال كان يمكن أن ينال منهم الجوع ، ولكن كل منزل فى الريف كان متلها على اطعامهم وفخورا بذلك ، وفى كل مكان كانوا يذهبون اليه كان السكان يتركون حقولهم وأنوالهم ومناضد عملهم ليسرعوا اليهم ويهتفوا لغاريبالدى وايطاليا •

وبعد تحرير فاريز تحرك غاريبالدى ليحاول تحرير كومو الواقعة عند طرف البحيرة الرائعة المسماة باسمها والمحفوفة بالجبال ، وهو موقع كان يمكن أن يمكن النمساويين من الدفاع عنها فى سهولة ولكن القائد غلبهم بحيله الخادعة البارعة ، وذلك بأن وضع كوستنز الذى كان موضع ثقته فى مكان غير هام مع فصيلة من الجند ليحول انتباه النمساويين عن هدفه الأسمى ، وانقض على كومو ذاتها بهجوم من الجناحين أوقع المدافعين المجريين فى مصيدة ، وتوقع غاريبالدى أن المدافعين عن المدينة سيثبتون فى الميدان الواسع الذى تجمعوا فيه، ولكن حينما دخل المدينة الصغيرة وقد خيم الظلام ومر بمنازلها التى كانت نوافذها تتوهج بالضوء وهو يدنو منها وجد نفسه محاطا بالأهالى الفرحين بدلا من أن يقابل باطلاق الرصاص من العدو ، كان القائد المجرى قد جلا عن المدينة بجنوده جميعا •

ولم يكدهم أسبوعان على الغزو الألبى حتى هزم الجيش الفرنسى النمساويين فى معركة ماجنتا العظيمة فى اليوم الرابع من شهر يونيو ، وترك غاريبالدى كومو فى يد أهلها المواطنين المدافعين عنها وأخذ يطارد العدو فى الجبال ، وكان عدد رجاله يبلغ أربعة أضعاف جنود غاريبالدى ، ولكنه حينما سمع أن النمساويين يفرون من ماجنتا رأى أن عليه أن يقوم بحركة سريعة ليصل الى شرقى بحيرة كومو قبل قدوم النمساويين حتى يقعوا فى قبضته وهم متقهقرون •

وكان أصحاب الزوارق المحلية والصيادون مستعدين بزوارقهم، وركب صيادو الألب الزوارق وعلى رأسهم غاريبالدى ، وحملتهم

الزوارق من أحد فروع البحيرة الى الفرع الآخر ليصلوا الى مدينة ليكا الواقعة فى شرقى البحيرة ، ووقف الناس فى جميع الطرق على الشواطىء الحضر الجميلة يهزون الأعلام ويلوحون بالأزهار ويهتفون قائلين « ليحيى غاريبالدى ، ولتحىى ايطاليا » .

وكانت جميع الجيوش النمساوية المتقهقرة متجهة الى ناحية بعينها وهى المنطقة المسماة بالرباعية الأضلاع التى يحدها من أركانها الأربعة أربع مدن حصينة فى فينيتيا شرقى لمباردى ، وفى شمال هذه المنطقة مباشرة ممر برينر ، وكان أهل كافور وغاريبالدى كذلك أنه مادام النمساويون معنيين فى التراجع فانه يصبح من الميسور اخراجهم جملة من حصونهم الايطالية القديمة ، ولم يحدث هذا بالسرعة المرجوة ، ولكن الصدمة الأولى أجلتهم عن لمباردى .

ولأجل أن يحدث هذا كان على غاريبالدى أن يسبقهم وهم يحاولون الاعتصام بمدينتى لمباردى الأخيرتين ، وهما : برجامو وبريسشيا . وقد اشتهر أهل هاتين المدينتين بالشجاعة الثورية وكراهة النمساويين، وكانت الطرق الرئيسية غاصة بالعدو المنسحب، ولذا عمد غاريبالدى ورجاله الى سلوك طريقين متوازيين فى أعلى الجبال وانحدروا منقضين فى هجمة خاطفة أذهلت قوات تفوقهم عددا وأضعفت روحها المعنوية .

وكان الكثيرون من الجنود النمساويين من الجهلة البدائيين والمجندين من مقاطعات البلقان النائية فى الامبراطورية النمساوية ، وقد غلب عليهم الاعتقاد بأن هذا القائد السريع الحركات وجنوده من الشبان اللامعين قد عقدوا حلفا مع الشيطان ، ورووا قصصا مضمونها أنهم رأوا « غاريبالدا » - كما كانوا يسمونه - فى وسط القتال فى كومو وفاريزى والرصاص يتطاير من سترته مثل حبات البرد ، وأقسموا أنه يشوى الأسرى ويأكل لحمهم .

ولم يكن ضباطهم بهذه المرتبة من الجهل ، ولكنهم كانوا مثلهم يخافون خوفا شديدا من قائد حرب العصابات الرهيب ، وقد وصف أحد ضباطه المنظر حينما أحضر ستة من الضباط النمساويين الذين وقعوا فى الأسر أمام غاريبالدى ، وكانوا ينتظرون دون أدنى شك أنهم سيدبحون فى المكان نفسه ، وبدلا من ذلك وقف القائد الهادئ السرب الفخم المنظر على قدميه وصافح الأسرى فردا فردا مثنيا على شجاعتهم وبأذلا لهم عطفه ليهون عليهم بلواهم .

وأسرع أهل الجبل فى برجامو وبريسشيا والقرى الواقعة فى الطريق الى مساعدة غاريبالدى وتيسير مهمته ، وتطوع عدد ضخم من أبنائهم وانضموا الى جيش غاريبالدى حتى صارت ثلاثة الآلاف الأصلية اثنى عشر ألفا ، وانطلق الرماة الألبيون الى الأمام كمارج من نار الوطنية . وقد كتب أحد المشاهدين يقول : « حينما كان غاريبالدى يمر بقرية كنت لا تقول انه قائد ، وانما هو صاحب ديانة جديدة يتبعه جماعة من المتعصبين » . وكان غاريبالدى يتحدث الى هذه الجموع الغفيرة بصوته العذب قائلا : « تعالوا . ان من يظل قابعا فى بيته لجبان ، انى أعدكم بالتعب والمشقة والمعارك ، ولكننا سننتصر أو نموت » . وقد انتصروا ، ولكن التحرير الكامل لاطاليا لم يتم فى ذلك الوقت ولا فى ذلك المكان ، وقد انتهت حرب سنة ١٨٥٩ بمعركة سولفرينو فى سهل لمباردى ، ولم يشترك غاريبالدى فى هذه المعركة لأنه كان لا يزال مجاهدا فى الجبال ، وفى هذه المعركة قام النمساويون بآخر محاولة لاسترداد مقاطعاتهم اللمباردية ولكنهم هزموا وطردها نهائيا ، وكان فيكتور عمانويل وكافور وغاريبالدى وكل وطنى ايطالى الى آخر رجل مستعدين لمداغة النمساويين واجلائهم الى الأبد من ايطاليا .

ولكننا نذكر أن هذه الحرب اللمباردية كانت من نتائج المحالفة التى عقدها كافور مع نابليون الثالث الذى سبق أن رأينا خداعه فى

هذه القصة عن تحرير ايطاليا ، ومرة ثانية عاد الامبراطور الفرنسى الى الجرى على طبيعته، فبعد معركة سولفرينو مباشرة قابل النمساويين سرا فى فيلا فرانكا وعقد معهم صلحا فجائيا ، وكاد كافور يجن من الغضب والحزن ، ولكن ملكه ظل محتفظا برزائته بحيث رأى أن بدمونت لا تستطيع مواصلة الحرب منفردة ، وأن على الايطاليين أن ينتظروا الزمن ويغتنموا الفرصة كلما لاحت .

وهكذا حررت مقاطعة لباردى وانضمت بارادتها الى مملكة بدمونت ، ولكن مقاطعة فينيتيا الكبيرة كانت لا تزال فى قبضة النمساويين ، وحاول نابليون الثالث بموجب شروط معاهدة فيلا فرانكا أن يرغم توسكانيا ودوقيات ايطاليا الوسطى على العودة الى حكم الدوقات الذين تحميمهم النمسا وأن يجعل مقاطعة رومانيا تحت حكم البابا الذى تحميمه فرنسا ، ولكن هذه الأجزاء من ايطاليا التى كانت قد أخذت تتطلع الى الحرية المستوحاة من حركة سنة ١٨٥٩ لم يكن من السهل تحريكها فى لعبة الشطرنج السياسية ، ولكى تظفر بنصير يؤيدها ويشد أزرها اتجهت الى ملك بدمونت والحكومة البريطانية ، التى ظلت حتى ذلك الوقت بعيدة عن الشئون الايطالية، واعتمادا على تشجيع هاتين الحكومتين رفضت هذه الولايات شروط معاهدة فيلا فرانكا .

فحرب سنة ١٨٥٩ كانت من أجل ذلك خطوة أكبر نحو ايطاليا المتحدة من تحرير لباردى وحدها ، والأرجح أن أعظم نتائج هذه الحرب - التى لم يشترك غاريبالدى فى معاركها الرئيسية - هى أنه خرج منها بوصفه معبودا للشعب الايطالى وقائدا لارادتهم للحرب ، وفى غزواته الألبية الحافظة وجد الفرصة لتدريب الشبان الجريئين الذين كانوا سيقومون بمغامرة من أحفل المغامرات التى عرفها تاريخ الحرية الطويل بالبطولة وأشدّها إثارة للمشاعر .



الفصل الثالث عشر

ابحار الألف

وكان غاريبالدى مثل كافور قد صدمته معاهدة فيلافرانكا ، وقد بلغ الغضب من كافور كل مبلغ حتى دفعه الى تقديم استقالته من رئاسة الوزارة واعتزاله حيناً من الزمن ، أما غاريبالدى فانه توقف فى مععان الحرب ورفض أن يترك مكانه وذهب مع خيرة ضباطه ورجاله لمساعدة مقاطعة رومانيا على مقاومة المعاهدة البغيضة .

وكان قد وصل الى ايطاليا الوسطى حينما أرسل اليه الملك فيكتور عمانويل ، وأقنع الملك - الذى صحبتته الحكمة حتى فى غيبة مستشاره اللامع كافور - غاريبالدى بأنه من الجنون التورط فى عمل

سريع ضد السياسة الفرنسية في حين أن الانتظار أو مصابرة الحوادث قد يثبت أنه قد يكون هناك طريق أحسن لضم إيطاليا الوسطى الى المملكة المتحدة ، ومكان الثورة المكشوفة يجب أن يكون مملكة نابولي وجزيرة صقلية ، ولكن لا يمكن أن يفكر انسان في تحريرهما الا اذا ضمت مجموعة المقاطعات الوسطى للملكة بدمونت أولا ، والأفضل أن يكون ذلك بالطرق السلمية .

وكان غاريبالدى رجلا عاقلا مواليا للملكه ، فاستمع اليه وعمل بنصيحته ، وعاد الى جنوا مع ضباطه المحبوبين مديتشى وبيكسيو وغيرهم ومعه قرابة ألف من صائدى الألب ، وقبل أن يبرح تورينو قبل من الملك هديته وهى بندقية رش جميلة كانت خاصة به ، ولكنه رفض رتبة جنرال دائم فى الجيش البدمونتى ، كان يريد الاحتفاظ بحته فى أن يعيش ويحارب على طريقته فى شجاعة وبساطة وبوصفه رجلا مكتمل الحرية .

وبينما كان غاريبالدى يقضى النصف الثانى من سنة ١٨٥٩ مترقبا منتظرا لم يتوقف هو ولا الحوادث عن الحركة ، وكانت نابولى وصقلية تعانيان أحوالا سيئة ، وقد زاد عسف الحكومة بالأهالى عما كان من قبل ، وكانت السجون والمعتقلات غاصة بزهرة الوطنيين فى جنوب ايطاليا ، وكانوا يذوون ويتضورون جوعا فى أحوال فظيعة ، ولم يغير هذه الأحوال السيئة موت الملك بومبا فى مايو سنة ١٨٥٩ ، كانت البلاد مختنقة فى قبضة الشرطة والجواسيس والقساوسة القساة ، وكان ملك نابولى الجديد فرنسيس الثانى أبله مترددا واقعا تحت رحمة حكومته الطاغية الوحشية مثل خصومها المطاردين المعذبين .

وفى أول سنة ١٨٦٠ أثبتت الحوادث صحة حكم الملك فيكتور عمانويل ؛ فقد عاد كافور الى منصب رئاسة الوزارة وكان قد وجد

متسعا من الوقت ليفتأ غضبه ، وتهدا ثورته ، ويثوب الى نفسه الماكرة ، وكان أول شيء عمله هو الاستفادة الى أقصى حد من ادراك نابليون أن معاهدة فيلافرا نكا لا يمكن فرضها بالقوة ، وأنه ليس هناك سبيل لعودة توسكانيا والدوقتين المتحدتين اللتين تسميان اميليا ورومانيا الى الحالة السابقة •

وأخذ كافور يتحسس طريقه ويتلمسه فى حذر واحتياط ، وبدأ يتعامل مع نابليون الثالث ، وكان قد فسد ما بين نابليون الثالث والبابا حتى أصبح غير عابىء باعادة الولايات الثائرة اليه ، ووافق نابليون على أن يتخلى عن معارضته فى ضم توسكانيا واميليا الى مملكة بدمونت ، وأجرى استفتاء عام لسكان هاتين المقاطعتين وأثبت الاستفتاء أن هذا الضم هو ما يرغب فيه سكان المقاطعتين، ولكن نابليون تقاضى ثمن ذلك ، وكان هذا الثمن هو التنازل لفرنسا عن سافوى الواقعة فى أقصى الركن الشمالى الغربى لمملكة بدمونت وتلك القطعة الصغيرة من شاطئ البحر المتوسط التى تشمل نيس ، وأقر كافور الصفقة وهو يفرك يديه مغتبطا •

وتلقى غاريبالدى هذه الأخبار بثورة من الغضب والحزن ، ولا يعلم المدى الذى كان يذهب به اليه حنقه على كافور الذى جعله « أجنبيا » على حد قوله ، فمسقط رأسه ومكان نشأته الايطالى قد بيع لفرنسا ولهذا المحتال المتقلب نابليون الثالث ، وقدم غاريبالدى تورينو فى أول ابريل قاصدا مهاجمة كافور فى مجلس النواب ، ولكن سرعان ما تحول التفاته الى أخبار جديدة حجبت كل شيء آخر •

فصقلية قد أعلنت الثورة • وكان نشوب الحرب الحقيقية مفاجأة، ولكن القدر التى جاشت وفارت كانت تغلى منذ زمن طويل ، وبطبيعة الحال كان لغاريبالدى اصبع فى ذلك ، وكذلك كان متزينا يستثير

الصقليين من لندن ، وكذلك كان يفعل فيكتور عمانويل وكافور ولكنهما كانا يتظاهران بأنهما لا يعرفان شيئا عن ذلك ، ولم يكن في وسعهما أن يظهرأ في صورة المتآمرين على قلب مملكة نابولي في حين أن العلاقات الدبلوماسية بين الدولتين على مايرام من الناحية الرسمية.

ولذلك كان لابد من أن يظل الجزء الخاص بغاريبالدى فى ثورة صقلية سرا ، ولم يكن فى استطاعة فيكتور عمانويل أن يرسله جهازا نهارا للمحافظة على وعده للصقليين بالمساعدة حينما يطلبونها منه ، وقد سأله المساعدة الآن ، وكان موقف غاريبالدى - بوصفه فردا عاديا - غير مرتبط بأحد ولا محسوبا على أى حكومة له قيمة كبيرة ، ولا مناص من أن تأخذ هذه الحملة الى صقلية صورة المغامرة الخاصة ، وهى فى الواقع كانت كذلك .

وكان الاستعداد لهذه الحملة يجرى سرا منذ شهور مضت ، وكان المواطنون المياسير وبخاصة أهل ميلانو وجنوا يقدمون المال اللازم لشراء الأسلحة والمؤن والذخيرة لما كان يسمى « رصيد المليون بندقية » وكان غاريبالدى قد أذاع خطته الاذاعة الكافية لانضمام ضباطه المخلصين اليه جميعهم وكذلك كثير من الشبان الذين حاربوا مع صيادى الألب وعادوا من ذلك الحين الى ديارهم .

واتخذ غاريبالدى مقرا لقيادته المشوية بالحفاء منزلا فى أرباض جنوا يسمى فيلا سبينولا ، وسرعان مابدأت تعج بالحركة والنشاط ، وجاءته أفواج متلاحقة من الشبان المتطوعين وقدامى الجنود المدربين . وكان مديتشى وبيكسيو مشغولين بتنظيم القوات ومتربطين السفينة « التى تحملنى الى صقلية مع بعض الرفقة » - كما كان يقول غاريبالدى .

وكان الرجال الأكبر سنا - مثل الدكتور برتاني الجنوى والمشرفين على رصيد المليون البندقية من أهل ميلانو - دائمى التنقل بين جنوا وميلانو وتورينو لا يألون جهدا فى الحصول على بنادق انفيلد الخاصة بالرصيد من ترسانة ميلانو ، ومما أثار دهشتهم أن القيم على مستودع الأسلحة رفض تسليمهم البنادق المطلوبة ، وكان هذا العمل المحرج الباعث على الغيظ والحقن جزءا من المثبطات والعقبات الجمة التى اعترضت سبيلهم ، وكان مرجع بعض تلك العوائق الى الشكوك الخطيرة التى حامت حول مدى انتشار الثورة فى صقلية التى سرعان ما ظهر أنها قد أهدمت، وجانب أكبر من البلبلة واضطراب الأمور كان مصدره سلوك كافور الدبلوماسى الدقيق فقد كان ذلك السلوك يقتضيه أن يظهر فى صورة الذى يعمل على توهين موقف غاريبالدى .

وكان غاريبالدى فى بادئ الأمر قد انتوى الاكتفاء بمصاحبة مائتى رجل الى صقلية ، ولكن فى الأيام الأخيرة من ابريل رأى أنه لابد من أن يرتفع عدد الرجال الى ألف رجل اذا كانت ستتاح للحملة فرصة النجاح ، وكان جيش البوربون فى صقلية يتجاوز عشرين ألف جندى ، وكان هناك جيش آخر من ثلاثة الى أربعة أضعاف هذا الجيش فى جنوب الجزيرة الإيطالية للقاء غاريبالدى اذا حدثته نفسه بالذهاب الى هنالك .

وقد كانت هذه الحملة ، كما يبدو ، مخاطرة من أخطر المخاطر وأشدها جنونا ، ولكنها فى الوقت نفسه من أكثر المخاطر التى قامت بها جماعة من الناس جرأة وبسالة .

وتجاهل الناس فى شمال إيطاليا أسطورة سرية هذه الحملة ، وقام المواطنون جميعا قومة رجل واحد لمساعدة غاريبالدى بكل ما يملكون - بأبنائهم وأموالهم ومؤنهم وعواطفهم المؤتلفة نحو أقس

قضية فى تاريخ إيطاليا - ونشبت الفروق الطبقيّة والسياسيّة ، ووقف الأغنياء والفقراء وأصحاب الامتيازات والعمال صفا واحدا ، وتبارت المدن فى تكوين اللجان لجمع الأموال من أجل المغامرة التى سيقوم بها غاريبالدى •

وبلغت حماسة التطوع للالتحاق بالحملة أشدها بين الشبان حتى صار من الصعب على الضباط الاختيار من بينهم ، وقد توجت مدينة بافيا وطنيتها التقليديّة بارسال خمسة أخوة من إحدى الأسر البارزة - وهى أسرة كيرولى - ولم يعد منهم لأهمهم الثكلى سوى واحد منهم ، وسجلت مدينة برجامو الصغيرة التى كانت مسرحا فى العام السالف للحرب الألبية فخرا فى التاريخ الإيطالى لنفسها ؛ إذ أرسلت عددا من الرجال أكثر ممن أرسلتهم أى مدينة أخرى ، وعند بدء تحرك القطار متجها الى جنوا حاملا مائة من الذين وقع عليهم الاختيار من أهل برجامو تلبية لطلب غاريبالدى كان به ثلثمائة وبعد معركة حامية للوصول الى العربات تختلف مائتان آخرون ظلوا صاخبين صارخين على الطوار ، وقد أبحر مع الألف مائة وستون من هؤلاء الشبان المتحمسين •

وقد أطلق دائما على حملة غاريبالدى الى صقلية هذا الاسم البسيط « الألف » • وقد أصبح كلمة ساحرة خلّدتها الأغاني وقصائد الشعر والأقاصيص والروايات ، وهم عند الإيطاليين مثل رجال الميليشيا من ليكسنجتون عند أهل الولايات المتحدة ، ولم يكن بين الألف جماعة من الشبان فحسب ، وانما كان بينهم جماعة كذلك من خيرة رجال إيطاليا ، وكان منهم المحامى ، والطبيب ، وأستاذ الجامعة ، والشاعر ، والفنان، وغيرهم من الرجال ذوى الكفاية فى ريعان شبابهم ولهم زوجات وأبناء كانوا فخورين بأن يروهم ذاهبين - وهكذا كانت رفقة غاريبالدى فى سبيل قضيته •

وكان ركوب البحر فى الليلة الخامسة من شهر مايو سنة ١٨٦٠ ، وعرف أهل جنوا جميعا ماكان حادثا ، ولكن لما كانت جنوا جزءا من مملكة بدمونت لذلك كان يستدعى الأمر أن يظهر الارتحال فى صورة مؤامرة خفية لا يسأل عنها الملك ولا كافور ، وكانت الحاجة ماسة الى سفينتين لا سفينة واحدة ، وكان على بكسيو الحصول على هاتين السفينتين بطريق الاستيلاء ؛ اذ لم يكن من الميسور الحصول عليهما بالطرق القانونية ، وبمساعدة وكيل شركة السفن التجارية استولى مع طائفة من الرجال على باخرتين صغيرتين كانتا فى رصيف الميناء ، وكان اسم احدهما « بيمونت » واسم الأخرى « لمباردو » . وبعد عواثى مثيرة للأعصاب ناشئة من اعداد البخار أبحرت السفينتان من ميناء جنوا فى الساعة الثالثة صباحا ، وكانت الحطة استحضار الرجال الألف فى قوارب تجديد ثم جذبهم الى السفينة مع صناديق البنادق والذخائر والمؤن فى الوقت الذى تتحرك فيه الباخرتان فى بطة الى ناحية الشرق .

وكان على الرجال أن يجتمعوا عند مكانين صخريين فى شواطئ جنوا الخارجية ، باستثناء خمسين رجلا منهم عند مكان اسمه كوارتو تحت المنزل الذى كان يقيم فيه غاريباالى ، وحينما خيم الظلام خرج الرجال فى هدوء من جنوا واصطف أهل جنوا على جانبى الطريق البالغ طوله ثلاثة أميال صامتين ورءوسهم عارية فى صلاة وداع صامتة ، كان الموقف من البوقار وجلالة الشأن بحيث لا يسمح بالهتاف ولا بالتلويح بالأعلام .

وحينما وصل الرجال الى كوارتو تفرقوا فى حديقة فيلا سينولا وجلسوا على الأرض تحت النجوم اللامعة منتظرين ظهور قائدهم ، وأخيرا رآوه يهبط من المنزل الى الصخور وحوله الضباط أركان حربه ، وقد خلع الى الأبد الملابس المدنية التى ارتداها السنين الطوال فى

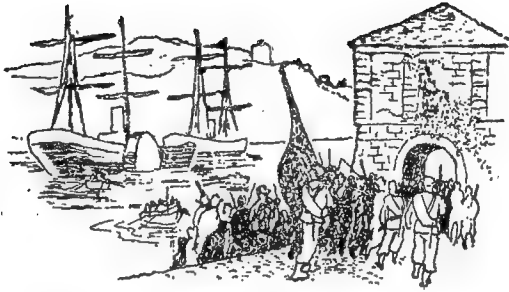


كان ملتفا في بنق رمادي اللون وهو يتقدم الى ظهر السفينة

صبر وانتظار كما خلع سترة بدمونت الرسمية • وقد لبس غاريبالدی سراويل رمادية فضفاضة وقميصا أحمر زمه عند خصره لا يشبه القميص النصفی الذي كان يلبسه سنة ١٨٤٩ وقد لف حول عنقه منديلا حريريا مرقشا كثير الألوان ، وقد التف في طيلسانه الرمادی الصوفی ووضع على رأسه قبعة سوداء مسدولة ، وصورته في هذا اللباس بوجهه الأبلح النبیل الذي كان يلهم كل من رآه في تمثل على الدوام شخصية ايطاليا لبلاده وللعالم •

وحوالی الساعة العاشرة مشى غاريبالدی من الصخرة في كوارتو الى أول الزوارق المنتظرة وسيفه الثقيل على عاتقه ، وتبعه الضباط والرجال - وكانوا جماعة مختلفة الأنماط للقيام بهذه المغامرة العجيبة - كان هناك جنود لا يلبسون الحلل العسكرية ، ولو أن أقلية منهم كانت تلبس القمصان الأحمر وسادة ينم مظهرهم على أنهم من العلماء الدارسين ، ورجال أعمال عاقدو العزم ، وتجار ، وطلبة أجراء بعضهم غلمان يافعون ، وكانوا لا يحملون سلاحا لأن البنادق كانت معبأة في صناديق خشبية لحملها وشحنها وكانت مما لا يمكن الاعتماد عليه لقدمها ، وقد حصلوا عليها حينما ضنت عليهم ترسانة ميلانو ببنادقها الجيدة •

واصطفت الزوارق في اتجاه المكان الذي احتشد فيه الرجال ليركبوا الباخرتين ، ولكن التأخير عند رصيف الميناء قلب الخطط رأسا على عقب ، وطال انتظارهم قبل أن تظهر السفينتان ، وجلس غاريبالدی في زورقه صامتا ونعرف ماذا كان يجول بخاطرهِ حينذاك لأنه كتب ما يأتي : « أيتها الليلة الخامسة من شهر مايو ... ليلة حسناء هادئة وقور ، يملأ جلالها قلوب كرام الرجال حينما يقدمون على تحرير المستبعدين • وهكذا كان الألف : هؤلاء الشبان المحنكون جنودی في حرب حرية ايطاليا ، وكنت وأنا فخور بثقتهم بى أشعر بأنى أستطيع محاولة أى شىء ... » •



الفصل الرابع عشر

زول الألف إلى البَر

كانت تباشير الصباح قد أخذت تلوح في الأفق حينما ظهرت أخيرا السفينتان ، وبدأ التزاحم بالمناكب على نقل الرجال والأسلحة الى ظهرى السفينتين قبل أن يملأ ضوء النهار الآفاق ويقضى على المخاطرة بأسرها ، وكان كل زورق حالسا ينقل راكبين ويتركهم متعلقين بحبال السفينتين يعود أدراجه لحمل غيرهم ونقلهم ، ونقلت صناديق البنادق بسرعة جنونية ، وتسلت السفينتان عند شروق الشمس .

وساد الهرج ظهر السفينتين ، ولم يكن أحد واثقا من أن كل متطوع قد وجد له مكانا باحدى السفينتين ، وكان أول شئ كشفه غاريبالدى وهو على ظهر السفينة بيمونت هو تلك الحقيقة المروعة ، وهى أن الحملة قد أبحرت دون أن تحمل معها الذخيرة ، وأكد ذلك الاتصال ببيكسيو على ظهر السفينة لمباردو ، وكانت الحملة قد استأجرت بعض البحارة لنقل الذخائر فى الظلام الى الباخرتين ، فخانوا رجال الحملة وفقدت الذخيرة ولم يكن هناك سبيل للعودة للبحث عنها ، أما المال الذى جمع لرصيد المليون البندقية فكان فى أمان على ظهر احدى السفينتين .

وكان البحر هائجا عجاجا فى اليوم الأول من أيام الرحلة ، وأصاب دوار البحر جميع ركاب السفينتين الذين عاشوا داخل الحدود بعيدين عن الشواطئ ، ولكن غاريبالدى كان هادئ البال ، ولم يكن قط من الذين يضعون الخطط فى فرط عناية وشدة حذر ويتحرون النظام الدقيق . ولم يكن يعرف على وجه التحديد عدد الرجال الذين صحبوه الا بعد أن أبحرت السفينتان ولم يقل شيئا سوى قوله : « أى جمع من الناس ! » . وكان لابد من عمل نظام يحد من الفوضى التى ازدحم فيها الناس على ظهر السفينتين ، ولم تكن المؤونة قد شحنت بعد .

واقتضى علاج هذه المسائل وقوف السفينتين عند تلامون على شاطئى توسكانيا ، وهناك عهد غاريبالدى الى ضابط بارع اسمه تور فى الحصول على الذخيرة ، وبينما كان تور يحاول اغراء قائد حصن لاعطائه كل الذخيرة التى عنده فى مستودع الذخائر كان غاريبالدى على الشاطئ يحاول الحصول على المساعدة من السلطات المحلية ، وقد كتب هذا الاعلان وتركه ليقرا على رجاله فى السفينتين :

« ان رسالة هذه الكتبية ستكون قائمة على التضحية الكاملة بالنفس لتحديد شباب وطننا . ولم يغر هؤلاء

الرجال الشجعان التطلع الى منصب أو انتظار مرتبة شرف أو الأمل فى مثوبة . والآن وقد حانت ساعة الجهاد مرة ثانية فان ايطاليا تراهم عائدين الى الوقوف فى الصف الأول وقد احتواهم السرور حريصين على اراقة دماهم لأجلها ، ان هتاف الحرب الذى رددده صيادو الألب هو نفسه الهتاف الذى رن صدها منذ اثنى عشر شهرا .

ايطاليا وفيكتور عمانويل

وهذا الهتاف المنبعث من شفاهكم سيوقع الرعب فى قلوب أعداء ايطاليا .

وهكذا أوضح غاريبالدى لمتزيني والجمهوريين أين يتجه ولاؤه ، وبعد أن استمع الألف — ولأجل الدقة تقول ان عدد رجال السفينتين بلغ ١٠٨٩ — الى رسالة قائدهم فى اعتزاز وفخر اصطفوا على الشاطئ ، وأجرى بعض النظام ، وقسمت الرجال الى ثمان فصائل ، وكانت تكون نصف الكتيبة الأولى تحت قيادة نينو بيكسيو ، والنصف الثانى من الكتيبة كان تحت قيادة صقلى اسمه كاريني ، وقد ترك فى جنوا جياكومو مديتشى بطل الفاشيللو فى حصار روما لجمع المتطوعين وتنظيمهم واعدادهم ليرسلوا امدادا فيما بعد ، وكان بين الألف مينوتى ابن غاريبالدى ، وكان حينذاك شابا فى التاسعة عشرة من عمره وسمح بقضاء يومين للحصول على الذخيرة التى ثبت بعد ذلك أنها غير كافية وقديمة الطراز ، ولتزويد السفينتين بالفحم ولشراء المؤونة وشحنها ولتدريب الرجال ، واذا وازنا بين فكرتنا الحديثة عن الاستعداد اللازم لعمل حملة عسكرية وبين هذا الاعداد الذى تم منذ أقل من قرن فى سرعة وعدم استيفاء وتعرض للأخطار الشديدة بدا لنا أن هذا الاستعداد لا يمكن تصديقه ، وقد كانت المدفعية مكونة من خمس مدافع قديمة مختلفة بطل استعمالها وقد استولت عليها الحملة

فى تلامون ، وكان الرجال يسحبونها على عربات خشبية صنعت على عجل وبغير اتقان ، وكانوا يطلقونها من الحين الى الحين حينما كانوا يريدون أن يدخلوا فى روع الناس أن معهم مدفعية قوية فى المؤخرة .

وفى اليوم التاسع من شهر مايو تم الاستعداد وأبحرت السفينتان الى الناحية المقصودة ، وكان غاريبالدى ومعه قرابة فصيلتين من الرجال بالسفينة بيمونت الصغرى والأسرع ، وكان نينوبيكسيو على رأس الفصائل الست الباقية على ظهر السفينة لمباردو ، وقد أدهش رجاله ولكن أدخل على نفوسهم السرور حينما قال فى خطبة له : « انى صاحب الأمر هنا . وانى كل شىء » ، فانا قيصر ، وأنا السلطان ، وأنا البابا ، أنا نينو بيكسيو ، ويلزم أن أطاع كما يطاع الله » .

واذا كانت هذه الكلمات تظهر بيكسيو فى صورة المختال الفخور فان الحملة ماكان يقدر لها النجاح لو أن هذا الرجل كان كذلك ، لقد كان أشجع الشجعان ، كان رجلا مرهوب الجانب ، صلب المكسر ، له غضبات نائرة لا تطاق ، وهو مع ذلك يحتفظ باحترام رجاله له لقيادته الفائقة وشجاعته التى لا نظير لها ، وكان يسمى « الألف الثانية » .

وكان هدف غاريبالدى الاستيلاء على بالرمو عاصمة صقلية الواقعة فى الشمال على شاطئ الجزيرة الكبيرة الغربى ، وفى غربى بالرمو ثغور كبيرة جيدة ، وكل منها يصلح مكانا لنزول الحملة ، ولكن غاريبالدى لم يستطع أن يبيت أيها أصلح حتى اقترب منها ، لأن شواطئ صقلية كانت تحرسها سفن ملك نابولى ، ولا يمكن النزول الى البر الا بالافلات من رقابتها .

فصمم على الانطلاق الى مارسالا - وهي الثغر الواقع في أقصى شاطئ صقلية الغربى والذى يشحن منه نبيذ مارسالا المشهور - ولما اقتربت السفينة بيمونت من الميناء رأى غاريبالدى سفينتين حرييتين راسيتين على الشاطئ ، وأمسك بنظارته وأجال النظر فيهما فاحصا مدققا فاستحال خوفه فرحا واستبشارا حينما رأى أن السفينتين كانتا بريطانيتين ، ولم يكذب يصدق عينيه حتى اقتربت منه سفينتان شراعتان صغيرتان كان من بهما من البحارة يتحدثون باللغة الانجليزية مما جعله يقطع الشك باليقين ، وكانت هناك ثلاث شركات ملاحه بريطانية فى مارسالا لشحن النبيذ ، وقد لجأت الى حكومتها لحمايتها حينما حدثت الثورة فى صقلية وأخذ حاكمها التابع لحكومة نابولى يصادر الأسلحة الموجودة بالجزيرة .

وكانت سفن حكومة نابولى الموكلة بالحراسة فى تلك المياه قد اتجهت الى الجنوب فى وقت وصول حملة غاريبالدى ، ولذلك أمر بالاندفاع السريع الى الميناء ، وكان فى مارسالا حاجز أمواج فى جانب الامتداد الجنوبى لمينائها الضحل ، وكان لابد من أن تمر به السفينتان لتتسللا الى داخل الحاجز ، واستطاعت السفينة بيمونت أن تمر بسلام الى الداخل ، ولكن السفينة لمباردو الأكبر حجما ارتطمت فى مدخل الميناء مما جعل نزول ركبها أشق وأكثر تعرضا للخطر .

وكان ذلك بين منتصف الساعة الثانية وابتداء الساعة الثالثة من مساء اليوم الحادى عشر من شهر مايو ، ولم يستطع بعض الانجليز الجالسين على أحد المقاهى الواقعة على الشاطئ تصديق عيونهم وهم يرون رجالا مسلحين بعضهم يرتدى القميص الأحمر وقد شرعوا فى النزول من البيمونت الى القوارب الصغيرة ، وينزلون منها الى البر فى الطرف الخارجى للحاجز الضيق ، ولم يكذب يبدأ هذا النزول حتى

كانت سفن الحراسة الحربية التابعة لحكومة نابولى الموكلة بحراسة الشاطئ الجنوبي قد شعرت بما هو حادث وأسرعت عائدة الى مارسالا ، ووصلت باخرة نابولى « سترومبولى » حينما كان رجال السفينة ييمونت قد نزلوا جميعا الى الشاطئ ، ولكن ثلاثة أرباع ركاب السفينة لمباردو كانوا لا يزالون على ظهر الباخرة معتمدين على مراكب الصيد المحلية التى أرغمت بالرشى أو بالتهديد باطلاق الرصاص على انزال رجالها الى الشاطئ .

وكان ربان السفينة سترومبولى عنده فرصة ليطلق النار على السفينة من جميع نواحيها ويقتل رجالها ويجعل نزولهم الى البر غير ممكن ، ولكنه بدلا من أن يفعل ذلك تمهل وتثبت ولم يعرف على وجه التحديد ماحمله على هذا السلوك سوى أن السفينتين البريطانيتين الراسيتين على مقربة منه ربما جعلته يتردد فى اطلاق النار ، ولما صمم أخيرا على اطلاق النار كانت الفرصة قد أفلتت ، وفضلا عن ذلك فان طريقة اطلاق المدافع كانت من الاختلال بحيث تمكن الرجال الباقون من النزول من الباخرة لمباردو الى البر فى سلام وخفة حركة واحكام نظام بالغين حد الادهاش ، كما روى بعض الانجليز الذين كانوا شهود عيان وأحثوا السير عبر الحاجز وفوقه الى مارسالا نفسها ، وأنزل كل شئ الى البر حتى المدافع الخمسة ، وظل غاربيالدى مبتسما فوق الحاجز متجاهلا النيران غير المحسمة التى يطلقها جنود مملكة نابولى ، وأمر بفتح الثقوب فى السفينتين لتمتلكا بالماء وتفرقا ، ولكن العدو بادر الى سحب احدهما ، فاستدار حينذاك غاربيالدى وتبع جنوده داخل الأسوار .

وانضمت اليه المدينة بدون مقاومة ، وحقيقة أنه لم يجد أى مظهر من مظاهر ثورة ناشطة عاملة ولكنه كذلك لم يجد أى جندى من جنود نابولى ، وكانت حكومة البوربون بغبائها المعتاد قد أمرت

قواتها بالانسحاب الى بالرمو بعد تجريدها مارسالا من السلاح بالرغم أن إيطاليا جميعها كانت تعلم في ذلك الوقت أن غاريبالدى قد أبحر من جنوا ، واجتمع مجلس مدينة مارسالا وأقر اصدار بيان مضمونه أن البوربون قد أصبحوا لا شأن لهم في حكم مارسالا ، وأن غاريبالدى هو القائم بالأمر فيها - الديكتاتور - باسم الملك فيكتور عمانويل .

ولفظة ديكتاتور أصبح لها معنى كرهه في الأوقات الحديثة ، ولذلك يحسن أن نبين كيف استعملت بإيطاليا في سنة ١٨٦٠ ، أنها كانت تعنى الحاكم العسكرى لاقليم تم تحريره ، وهو يقوم مؤقتا بالحكم حتى يسلمه الى الحكومة القومية .

ولم يضع غاريبالدى يوما واحدا منذ وصوله للبدء في السير الى بالرمو ، وكان الطريق إليها يتجه شرقا عبر أميال من الأراضي المستوية الجرداء ثم يخترق مزارع وضياعا قائمة على قلال حتى جبال صقلية القحلاء ، ولم يكن هناك مكان يمكن الاحتماء به ولا غابات يستظل بأشجارها ، وداخل صقلية في منتصف شهر مايو يشتعل اشتعالا بحرارة المنطقة الاستوائية ، وبدأ الجيش الصغير مسيره بروخ عالية ، وكان غاريبالدى وبيكسيو وعدد قليل من الضباط على ظهور الجياد التي حصلوا عليها في مارسالا ، أما سائر رجال الجيش فكانوا يسبرون على أقدامهم ، وبقي بحارة السفينتين مع الألف ، وتحولوا الى المدفعية وتولوا أمر المدافع القديمة الكسيحة .

وقليل من هؤلاء كانوا متعودين على مثل هذا السير العنيف في حرارة شمس الجنوب المتوقدة ، ولكن غاريبالدى سرعان ماترجل عن جواده ليضرب في الأرض مثلهم ، وكان يتحدث مع الجميع في بشر وطلاقة، وكان الرجال يريدون أن يعبوا من الماء عند مواقف الاستراحة أكثر مما يكون مناسباً لسلامة صحتهم ولذلك كان يقف بيكسيو الى جانب الينابيع شاهرا سلاحه .

وفى مساء هذا اليوم أقاموا أول معسكر لهم ، وهناك انضم اليهم جماعة من المزارعين الأقوياء الحسان راكبين خيولهم ومزودين بأسلحة جيدة ، وكان هؤلاء أول من رأوا الصقليين الحقيقيين الثائرين، وقد قبلوا بالترحيب والتهليل ، وكانت هذه الجماعات من الثائرين على حكم البوربون تسمى « الفرق » وكان رجال جيش « الألف » ينتظرون منهم شجاعة وجرأة أكثر مما أظهرها غالبيتهم رغم مظهرهم الحربى ، ولكنهم أظهروا أن سكان صقلية كانوا ينحازون الى صفوف غاريبالدى ، وكان هذا هو المهم فى النهاية .



الفصل الخامس عشر

معركة كالانافيني

انتشر خبر نزول غاريبالدي بجزيرة صقلية في جميع أنحاء إيطاليا من الشمال الطرب الى حكام نابولي الذين استطارهم الخبر ، وكان الحرس في بالرمو مكونا من حوالى ٢٥٠٠٠ من جنود الجيش النظامي ، ولكن الخاكم المحلي بدلا من أن يستخف بالقوة الصغيرة التي كانت مع غاريبالدي اضطربت أعصابه وأرسل الى نابولي يطلب

ارسال المدد . ومن أول يوم أظهر هو وأنصاره من رجال حكومة البوربون وجيشه سوء حكمهم على الأشياء ، وخطأ تقديرهم للأمور ، وضعف الروح المعنوية ، وفقدان النظام ، وهى جميعها النتائج المألوفة للطفيان والفساد .

وحاول رجال نابولى فى بادئ الأمر ايقاع غاريبالدى فى الشرك الذى أفلت منه ، وذلك بانزال قوة فى مارسالا عند مؤخرته ، ولكن قائدهم لاندى نبذ هذه الفكرة مؤثرا فكرة أخرى غير مقبولة وهى التقدم للملاقاة غاريبالدى ليمنع تهديده لمدينة بالرمو ، وبدأ لاندى يتجه الى مدينة كالاتافيمى الواقعة فى غرب بالرمو فى منطقة جبلية وعرة ومعه ثلاثة آلاف من الجنود المنتقاة تؤيدها فرقة من الفرسان والمدفعية ، ولم يكن لغاريبالدى مندوحة عن لقاء هذه القوات لأنها كانت مرابطة فى الطريق المفضى الى بالرمو ، وكان هو يعتزم الاستيلاء على المدينة .

وفى صباح الخامس عشر من مايو سمع النابليونون أن غاريبالدى مقبل عليهم ، ولكن قائدهم بدلا من أن يقوم بهجوم عليه لبث بالمدينة وأرسل فصائل من الجند أمرها - حسب كلماته - « بالتجوال خلال الريف لتحدث تأثيرا معنويا يرهب العدو » ويندر أن نجد فى السجلات الحربية أمرا عسكريا أدل على العجز والسخف من هذا الأمر.

وفى أثناء ذلك فى الساعة الثالثة من صباح اليوم نفسه بقرية ساليلى التى نام بها الألف أيقظهم من نومهم النفير الحاد الذى نفخ فيه البروجى الوحيد الذى سبق له أن قام بهذا الدور فى السنة السالفة عند الانتصار فى كومو ، واجتمعوا فى خارج ساليلى ، ومعهم فصائل عدة انضمت اليهم ، وخرج سكان القرية جميعهم لتحياتهم والتهتاف لهم وتقدم الطابور الصغير ورجاله يتغنون نشيد

مانارا للرماة الذي يعيبد الى ذاكرتهم أيام الدفاع عن روما الحافلة بمواقف البطولة .

وكان غاريبالدى نفسه جذلان مشرق النفس ، وعرف رجال الحملة جميعهم أن هذا اليوم هو اليوم الأول من أيام المعركة ، ولما تسامت الشمس فى الأفق وقفوا قليلا فى آخر قرية قبل الوصول الى كالاتافيمي ، وأحضر الكثيرون برتقالا وليمونا وحملوه فى جيوبهم لكي يرفهوا به عن أنفسهم فى يوم كانت ظواهره تدل على أنه سيكون شديدا القيظ .

ولما برحوا هذه القرية تسلقوا مقدمة تل منحدر مشرف على واد ضيق قد انساب فيه جدول ، وجلس غاريبالدى عند رأس التل ومعه أركان حربه يراقب جموع النابوليين عبر الوادى الضيق على تل آخر مرتفع ، وهم ينفذون الأوامر الصادرة اليهم بالتقدم فى الريف ، وكان يقودهم ضابط برتبة عميد اسمه سفورزا ، وكان أصبح ادراكا من القائد لاندى الذى ظل قابعا وراءهم فى كالاتافيمي ، وألقى سفورزا من ناحيته نظرة متمعنة على الغزاة عبر الوادى الضيق ، وبدلا من أن يرى جيوشا متماسكة قوية يرتدى رجالها حلا بدموننتية كما كان يتوقع رأى جماعة من الرجال فى ملابس مدنية رثة ، وبعضهم كان يرتدى القمصان الحمر مما جعل سفورزا يعتقد أنهم من المجرمين الهاربين ، فصمم على أن « يرد هؤلاء الأوباش الأوغاد الى ساليلى » كما تروى لنا السجلات .

وكانت الشمس فى كبد السماء ، وتأهب القائدان للهجوم ، وكان غاريبالدى جالسا على صخرة وعلم ايطاليا ودموننت ذو الألوان الثلاثة الأحمر والأبيض والأخضر يخفق الى جانبه ، وقد اصطفقت قواته فى سفح التل أمامه ومعها جيش من الفرسان حملة الأسلحة النارية

(الكاريينات) والرماة الجنوبيين ، الذين انضموا الى الألف فى الصف الأول ، ووقفت جنود نابولى الحسنة التسليح فى كساويهم اللامعة الأنيقة عبر الوادى فى ناحية التل المواجهة الأكثر انحدارا .

وفجأة انطلقت أبواق العدو مؤذنة بالتقدم ، وبدأ النابوليون يتحركون ، وأمر غاريبالدى فتى البروجى أن ينفخ فى بوق كومو ، فجثم رجاله وأعصابهم مشدودة ، وانتظروا اقتراب العدو ، وكانت طلائعه تخوض غمار الجدول ، وأخذت تطلق نيرانها حينما وصلت الى مدخل مرمى النيران ، وبدأ الجنوبيون يطلقون نيرانهم ، ولما سقط بعض الأعداء وثب الألف وثبة واحدة قبل أن يصدر اليهم الأمر بدقيقة واحدة وانطلقوا الى سفح التل مصوبين السونكى .

واضطربت طليعة النابولين وظهر الخلل فى صفوفهم ، وارتدوا هاربين الى التل الذى احتشد فيه رجالهم ، وبدأ دور الألف فى الهجوم ، فانطلقوا الى الأمام بدون توقف والعدو يتراجع أمامهم ، وانضم العدو الى الرديف المرباط فوق قمة التل وهناك ثبتوا أقدامهم ، واستمرت المعركة ساعتين ، لم ينقطع خلالهما هجمات الألف النائرة على جيش يفوقهم عددا الى حد كبير .

كان عدد جنود النابولين أكثر من ثلاثة أضعاف الألف ، وكل جندى كان يحمل بندقية جيدة ، وكانت البنادق القديمة التى يحملها رجال غاريبالدى تعد من الأسلحة البدائية بالقياس اليها ، وكان عند العدو عدد وافر من الذخيرة فى حين أن الغاريبالديين لم يكن معهم سوى عدد قليل من الذخائر الى حد أن بعضهم ماينقص العدو وهو السونكى ، ولاقا ، ولكن الألف كان عندهم ماينقص العدو وهو السونكى ، والإقدام ، وحسن الإدراك ، وخفة الحركة .



اننا جئنا هنا لتصنع إيطاليا أو نموت

ووقف الجنود النابوليون الحسنى التدريب فى نظام يطلقون النيران دفعة واحدة كلما تلقوا الأمر بذلك ، أما الغاريبالديون فكانوا يحاربون أفرادا ، وكل فرد منهم يعتمد على تفكيره الخاص ، ولكن الجميع كانت تلمهم القيادة الباهرة ، وكانوا يحاربون فى صفوف متباعدة على طريقة الأمريكين فى القتال ، ويقومون بهجمات فجائية من مكان حريز الى مكان آخر بعده ولا يطلقون النيران الا من مرمى قريب ، ويستعملون الحراب حينما يدانون العدو .

ولكن التقدم كان شاقا ، فقد قسم الفلاحون التل المنحدر الى مدرجات ضيقة تنمو بها الحبوب ، وفى بعض الأحيان كان ذلك يجدى على الجنود اذ يتيح لهم فرصة للتجمع والتقاط الانفاس ، ولكنه فى الوقت نفسه جعلهم هدفا لجنود نابولى يطلقون عليه النار ، واستمر الهجوم فى هجمات مركزة يقودها ضباط كانوا يعرضون أنفسهم بغير اكترات لنيران العدو ، وكان بيكسيو على جواده الأبيض القائد الذى لا يستقر له قرار والمشرف على جميع أطراف المعركة وكان ينطلق من معسكر القتال الى غاريبالدى متوسلا اليه أن يظل بعيدا عن الخطر .

ولكنه لما رأى رجاله يصابون لم يستطع البقاء فى مكانه وأخذ ينزل من التل وجرّد سيفه وقاد الهجمات على تل العدو ، وتجمع حوله الضباط أركان الحرب ، وسقط اثنان منهم قتيلين اذ أصابهما رصاص البنادق الذى كان يمكن أن يقتل القائد ، وجرح ابنه مينوتى مع آخرين كثيرين ، وتخرج موقف الألف ، وكانت الأمداد ماتنكفرت رد الى الأعداء لابقاء صفوفهم قوية متماسكة ، فى حين كانت كل هجمة الى الأمام يقوم بها رجال غاريبالدى تنقص عددهم وتوهن قوتهم ، ورأى كل ضابط مجرب أن الموقف يبعث على اليأس ، ولكن لم يجترئ أحد أن يقول ذلك للقائد ، ولم يجد بيكسيو الشجاع البهمة مناصبا من أن يصارح فى النهاية القائد قائلا :

« أيها القائد ، أخشى أن يكون تراجعنا ضربة لازب » فأجابه غاريبالدى فى هدوء واطمئنان : « اننا جئنا هنا لنصنع ايطاليا أو نموت » .

ولم يكن غاريبالدى من غواة التعبيرات المسرحية كهذه الكلمة ، وانما قال هذه الكلمات التاريخية لأنه كان يعبر بها تعبيرا دقيقا عما يعنيه ، وكان يعلم أن النكوص فى هذه الأزمة سيكون أبلغ ضررا بقضية ايطاليا من اباداة الفرقة بأسرها فى الميدان .

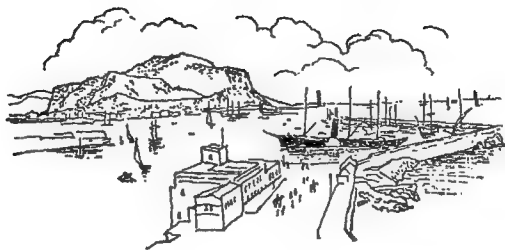
وقاد المعركة المتعثرة هذا الرجل النصف الذى فقد الكثير من خفة الحركة وأخذ يجاهد فى التقدم على رأس جيشه من الشبان المكودين ، وبلغوا المدرج الأخير المصائب لقمة التل ، وتوقفوا جائعين ليستريحوا أو يستعدوا للهجمة الأخيرة التى قد يكون فيها القضاء عليهم جميعا ، وأصدر قائد الأعداء الأمر بالهجوم على الغاريبالدين واكتساحهم وازالتهم من مجثمهم ، ولكن النابوليين تجاهلوا الأمر وامتنعوا عن الهجوم بالرغم من أنهم ظلوا واقفين بغير حركة ومتابعين انطلاق النيران ، ولكن نيرانهم كانت حينذاك جد عالية وكانت تمر فوق رموس المهاجمين ، وأخذ بعض النابوليين يقذفون الأحجار والصخور ، وأصابوا احداها غاريبالدى فى ظهره وهو ينحنى الى الأمام فوثب وعيناه متوقدتان وصاح برجالة قائلا : « تقدموا » انهم يرموننا بالأحجار . لقد نفدت ذخيرتهم ..

ووثب الى الأمام على جرف التل وهو يلوح بسيفه، واندفع رجاله ورائه وحرا بهم مشهورة ، وحدث صدام فى قمة التل شديد الوطأة بالغ الشدة ، ولم يكن النابوليون قد استنفدوا ذخيرتهم بعد ولكنهم تخاذلوا وفت فى عضدهم ازاء رعاى غاريبالدى وأوباشه الذين لم يقل لهم عزم ولم تبشّن لهم همة .

ولما انتهت نوبة الجنون وهذا سعار المعركة رأى الغاريبالديون صفوف العدو المحطمة المنهزمة وهى متدفقة على الجانب الآخر من التل لاثثة بأذيال الفرار فى دعر ومجللة بعار الهزيمة ، وتجمع رجال غاريبالدى حول قائدهم هاتفين صائحين ، ثم ارتموا من الاعياء على الأرض التى لفحتها حرارة الشمس •

وقتل من الألف فى هذا اليوم ثلاثون وجرح مائة جروحا بالغة، واحتمل الجرحى آلاما شديدة ، وذلك لأن كثيرا من الأطباء وطلبة الطب الذين انضموا الى الألف جاءوا بوصفهم جنودا مقاتلة ، وبعد يوم واحد من العناية بالجرحى كان على الجيش أن يتقدم الى بالرمو تاركا الجرحى فى أيدي الصقليين غير البارعين •

وضعفت روح النابوليين المنهزمين المعنوية ، فارتدوا هاربين الى كالاتافيمى ، وأخلوها فى منتصف الليل ، وبعد أربع وعشرين ساعة عادوا الى بالرمو وأذاعوا قصة قائد حرب العصابات الرهيب ورجاله المتوحشين ، وانتشرت هذه الاشاعات فى نواحي الريف انتشار النار فى الهشيم وأذاعتها الفصائل كذلك لأنهم لم يكن لهم نفع يذكر فى المعركة فقد كانوا غير مهئين لاستعمال السلاح الأبيض كما كان النابوليون غير قادرين على الثبات له ، ولكنهم كانوا من الشعب ، وفى كل مدينة بعد أخرى كانت تحتشد الجموع للترحيب بمخلصيهم •



الفصل السادس عشر

الانتصار في صقلية

بعد النزول في مارسالا بستة أيام تقدم الألف منتصرين من كالاتافيمي في الطريق الى بالرمو وهي على مسافة خمسة وثلاثين ميلا، وكان شكلهم عجيبا وقد امتلأت نفوسهم ثقة واعتزازا ، ولكن منظرهم لم يكن يدل على شيء من ذلك ، فقد كانت ملابسهم المدنية مزقا ، وأحذيتهم خلقة ، وكان كثيرون منهم يظلمون في سيرهم أو يضعون الأربطة حول رءوسهم أو أذرعهم ، وكانت المتاعب الكبرى لا تزال أمامهم ، وقبل أن ينتهى ذلك كله كانت أهوال المعركة والتعرض للعواصف والشمس الحارقة قد أحالت منظرهم الى صورة لمة من الصعاليك في الأسمال البالية ، وقد نطق بيكسيو بلسان الجميع حين قال فى ذلك الصباح : « فى أقرب وقت سنكون اما فى بالرمو واما فى الجحيم » .

وسرعان ماترك غاريبالدى الطريق العام وقاد رجاله فى طرقات ضيقة وممرات فى مخارم الجبال كانت هى الطريق الوحيد الى هدفهم ، وبالرمو واقعة على شاطئ صقلية الشمالى وبها ميناء جميل ملآن بالسفن وحركة الشحن ، وهى محاطة بالجبال من نواحي البر ، وكان غاريبالدى يعلم أن عدد حراسها من جيوش البوربون يناهز عشرين ألفا ، ويمكنهم أن يتلقوا المدد بحرا من نابولى .

وكان الهجوم المباشر على المدينة من المستحيلات ، وكان الأمل الوحيد هو تخلل الجبال ، وذلك باخفاء أعداد قليلة من الغاريبالدين ثم الهجوم على المدينة من بعض الجهات القليلة الحراس اذا تيسر ذلك ، ومتى دخل غاريبالدى المدينة كان اعتماده على قيام الأهالى بالثورة وانضمامهم اليه فى القتال لقلب حكومة البوربون البغيضة .

ووضع غاريبالدى فى مكانين بعيدين فى الجبال جماعة من الصقليين الوطنيين المقادير ، وجعل كل واحد من هذه الجماعة على رأس عدد من الفصائل ، ولم تكن هذه الفصائل من الجنود التى يمكن الاعتماد عليها أو الاطمئنان إليها فى القتال ، ولكنه كان يستطيع الاعتماد عليها وعلى قادتها فى تعرف الأخبار وجمع المعلومات ، وكان غاريبالدى يعمل على مقربة من هذه الفصائل ، وبينما كان غاريبالدى ذاهبا للاجتماع بهم فى مدينة واقعة فى جنوب غربى بالرمو هاجمت الصقليين قوة مكونة من ثلاثة آلاف من جنود نابولى وهزمتهم وتحولت قاصدة غاريبالدى وكان عليه أن يغير خطه وأن يكون ذلك فى التوقيت واللحظة .

ورأى أن يحاول الهجوم على بالرمو من الجنوب الشرقى بدلا من مهاجمتها من الجنوب الغربى ، ولكى يقوم بهذا الهجوم كان عليه أن يخدع العدو ويقوم بحركة زحف شاقة فى الجنوب عبر منطقة متأبدة

عارية المحاسر ، وقام الغاريبالدون بهذه الحركة فى هدأة الليل ، وتركوا فى المكان الذى بدعوا منه سيرهم نيران المعسكر مشتعلة ، وقد خدعت العدو المقتفى لأثارهم وضللته وجعلته يتجه الى جوف الجزيرة ظنا منه أن غاريبالدو قد نكص على عقبيه اليه .

ولأجل الامعان فى تضليل العدو وزيادة تغفله أرسل غاريبالدو سرية مكونة من مائتين من رجاله ومعهم المدفعية المكونة من المدافع الخمسة القديمة فى اتجاه بعيد عن زحفه ، وهذا التفهق الزائف شغل العدو فى وقت قيام غاريبالدو بعمل دائرة متسعة خلال أشد الجهات الجبلية صلابة ليصل الى المعمر المسمى جبلزوسا ، وهو المنفذ الوحيد الى شاطئ البحر الجميل المحفوف بالكروم وبساتين البرتقال حيث تقوم مدينة بالرمو ، وقد اقتضى هذا الزحف الشاق الألف مجهود عشرة أيام اشتبكوا خلالها فى مناوشات مع جماعات من طلائع العدو .

وفى اليوم السادس بعد العشرين من شهر مايو وقف غاريبالدو ازاء المعمر لينعم رجاله بالقليل من الراحة وليتلقى المعلومات عن الفرص السوانح لاقتحام المدينة ، وقيل له ان أحد الأبواب فى جنوب شرقى المدينة أقل حرسا من سائر الأمكنة الأخرى التى كانت محصنة تحصينا منيعا ، وعلم كذلك أن بين السفن الكثيرة الراسية فى ميناء بالرمو سفينتين حربيتين بريطانيتين وسفينة أخرى أمريكية ، وركب ضابطان انجليزيان عربة ليقدا لغاريبالدو تحية الاحترام ، كما وفد عليه كذلك أمريكيان من الهنود الحمر ، وأعطاه أحد الضابطين الأمريكين مسدسا حمله معه فى معركة اليوم التالى ، ويمكن أن نتصور عواطف هؤلاء البحارة الانجليز والأمريكين الذين عنوا عناية كبيرة بأن يلتزموا الحياد التام فى أثناء قيام المعركة لأجل الاستيلاء على بالرمو .

وفى خلال ليلة ٢٦ من مايو تسلسل الألف - الذين كان عددهم الحقيقى قرابة سبعمائة وخمسين جنديا - خلال المنحدر المؤدى من الممر الى الجسر الأول من الجسرين المتدين خارج مدخل المدينة الذى لم يكن هناك بد من اختراقه ، وهنا وقع غاريبالدى فى خطأ من أخطائه القليلة فى الحكم والتقدير ، وذلك بخضوعه لرجاء أعضاء الفرقة الصقلية أن يتقدموا الجيش ويدخلوا المدينة فى الطليعة ، ولكنهم حينما صبت عليهم النيران القاتلة عند الجسر الأول تبدد جمعهم ولاذوا بالفرار تاركين الألف مستهدفين خلفهم للنيران .

فسحب غاريبالدى سيفه واستحث جواده على التقدم فى الطليعة وصاح برجاله : « الى الأمام .. الى الأمام .. الى داخل المدينة » وكانت جنود فرقة الفرسان الجنويين حملة الأسلحة النارية وفصيلتان من فرقة بيكسيو حملة الحراب هم الذين انقضوا على النابوليين عند الجسر وأبادوهم ، واستولوا على الجسر الثانى بالطريقة نفسها ، وبقي أمامهم مسافة تبلغ الميل من طرق الضواحي انطلق فيها الألف فى غير نظام متجاهلين نيران العدو حتى انتهوا الى حاجز عال من أحجار تمهيد الطرق اقامة النابوليون ليسدوا الطريق .

وأهوى الغاريبالديون بأيديهم العارية على الحاجز ولم يألوا جهدا فى هدمه وتدميره ونيران العدو مصوبة نحوه مؤيدة بمدفعين ، وسقط بعض خيارهم قتيلًا وهم دائبون على تحطيم الحاجز ، وتجاهل بيكسيو رصاصة فى صدره وهو يقود رجاله كعادته ، وأخيرا سقط الحاجز وكان أول من وثب فوق أنقاضه ودخل المدينة أحد الشبان الشجعان القادمين من برجامو ، وفسحوا مكانا ليمر منه غاريبالدى ممتطيا جواده ، وهو مازال يصيح قائلا : « الى الأمام .. الى قلب المدينة » . وانطلق وراء الألف الى الشارع .

ولم يتوقفوا عن التقدم حتى بلغوا ميدانا صغيرا اسمه « السوق القديم » وهو فى وسط حى شعبى من أحياء بالرمو المزدحمة ، وكانت الساعة الرابعة من صباح يوم ٢٧ من مايو ، وبينما كان غاريبالدى جالسا فوق ظهر جواده يصدر الأوامر الى رجاله تجمع حوله ألوف من أهل المدينة وقد استطارهم السرور وهم يصيحون ويتدافعون بالمناكب ويتسابقون متنافسين الى لمس القائد أو تقبيل يده ، وقد أقر صلاتهم للشكر بمعانقة بيكسيو الذى كان يكون فى حالة اغماء من الألم وفقد الدم بعد أن انتزع الرصاصة بيده من صدره .

وعملا بأمر غاريبالدى تفرق الألف الى جماعات صغيرة لا تتجاوز الجماعة اثنى عشر رجلا، وانتشروا فى شوارع المدينة الكثيرة وسككها، وصاروا قادة للسكان الثائرين، وانضمت الى المعركة الفصائل الصقلية التى أخجلتها الهزيمة ، وقد استطاعت أن تثبت بالممارسة شيئا فشيئا أنها قادرة على الثبات ليران العدو وأن تقاتل بحذر وبقظة .

وانتزع الناس من الطرق الأحجار التى رصفت بها وأقاموا منها حواجز فى كل ممر له أهمية حربية وامتلات المدينة بأمثال هذه الحواجز ، وقاد الرجال الشجعان ذوو العقول الراجحة القادمون من الشمال أهل المدينة فى الحرب الشعواء التى استعملت فيها السكاكين والحرايب والسيوف ، وكان النصر متوقفا على قدرة هؤلاء الشماليين على المبادأة .

واتخذ غاريبالدى مكان قيادته فوق درجات غرفة المدينة فى وسط أحد الميادين الرئيسية ، وذلك بعد أن فك سرج جواده بيديه ، ووالى الجلوس هناك ثلاثة أيام والحرب دائرة الأرجاء فى المدينة ، وكان يتلقى التقارير التى يحضرها له العداءون ويصدر الأوامر غير ملق باله الى الرصاص والقنابل التى كان لها حوله صغير وأزيز قبل

سقوطها فى الميدان متباعدة عن الدرجات التى جلس فوقها ، واعتقد أهل بالرمو الذين كانوا بطبيعتهم ميالين الى تصديق الخرافات أن غاريبالدى موقى من الرصاص والقنابل بمعجزة ، وظنوا أن السوط الذى كان يحمله فى يده وهو راكب جواده ويديره تميمة تمنع عنه الرصاص .

وبعد دخوله المدينة بثمان ساعات صارت المدينة جميعها فى يد الثائرين ماعدا بعض الأماكن الهامة من الناحية الحربية ؛ مثل قصر الحاكم والكاتدرائية ، فقد دافعت عنهما قوة كبيرة غير عادية من قوات جيش نابولى ، ودارت حولهما رحى حرب حامية انتهت بمعركة لأجل الاستيلاء على الكاتدرائية انتصرت فيها فئة قليلة من رجال برجامو فى اليوم الأخير ، وفى أثناء ذلك كانت السفن الحربية النابولية فى الميناء تضرب المدينة بالقنابل ضربا دراكا لا ونية فيه ، واستتھض القواد الشجعان من رجال الألف عزيمة أهالى المدينة الثائرين فصدقوا القتال حتى استولوا على كل شبر فى المدينة بعد ثلاثة أيام .

وطلب القائد البوربونى هدنة ، واتفق على عقد اجتماع لوقف القتال مؤقتا بين القائد البوربونى وغاريبالدى فى مكان محايد على ظهر احدى السفن الحربية البريطانية ، وظل غاريبالدى سيد الموقف برغم أن حالته الحقيقية كانت حرجة، فقد كان الذين يستطيعون القتال من رجاله لا يزيدون سوى زيادة قليلة عن نصف الألف ، وقد نفدت ذخائرهم على وجه التقريب ، وكان لا يمكن الاعتماد على الصقليين فى القيام بالواجبات الحربية النظامية أو فى استكمال عدد المقاتلة ، وشرع رجال الفصائل فى العودة الى قراهم ، وأخفى غاريبالدى ذلك كله وتظاهر بالقوة عن طريق الهدنة الأولى ، ثم الهدنة الثانية ، والهدنة الأخيرة .

وبموجب شروطها كان على العشرين ألفا من جنود نابولى أن يغادروا بالرمو الى نابولى بين يوم ٧ من يونيو واليوم الثامن عشر منه ، وقد كسب غاريبالدی أكثر من نصف صقلية بما فيه العاصمة ، ولكن كان عليه أن يحكم قبضته عليهما ، وأن يغزو باقى مملكة نابولى ، وقد نفست عنه كربته فى أثناء رحيل جيوش العدو بوصول سفينة من جنوا مشحونة بالأسلحة والذخيرة ، وفى اليوم الثامن عشر من شهر يونيو نزل الى البر على مقربة من بالرمو جياكومو مديتشى الذى أبلى خیر بلاء فى الدفاع عن الفاشيللو فى روما على رأس ألفين وخمسمائة جندي حسمى التسليح .

وهكذا انتهت مغامرة الألف ، فهذه الكتيبة القليلة من الرجال الذين وهبوا حياتهم لتحقيق غاية نبيلة تحت قيادة قائد من نوادر قادة الحرية الذين عرفتهم الانسانية ومن أقدرهم على أن يلهم رجاله ويسمو بروحهم المعنوية ، وقد سحقت جيوشا تفوقها عددا بنسبة العدد الواحد الى العشرين ، وكان سلاحها الحقيقى الشجاعة والوطنية وحب رجالها لجيوسبى غاريبالدی .



الفصل السابع عشر

إنشاء إيطاليا

رأت الأشهر الستة التالية نوعا من الحرب يختلف الاختلاف كله عن المغامرة الخطيرة الهوجاء التي قام بها الألف ، وحتى قبل مسير غاريبالدي من بالرمو وقد وافته الامداد وأعاد تنظيم جيشه لتحرير النصف الشرقي من الجزيرة دعتة الجزيرة بأسرها محررها ، وكانت هناك قوات كبسيرة من جيوش البوربون على الساحل الشرقي وقد هزمها غاريبالدي في معركة ميلانزو ، وواصل زحفه ليعبر مضيق ميسينا الى صميم مملكة نابولي .

وترقبت أوروبا جميعها غاريبالدى وهو يقوم بزحفه التاريخى فى قفار جنوب ايطاليا المتوقدة ويسوق أمامه جيوش البوربون الجرارة سوق الأغنام ويحرر كل مدينة فى طريقه وكل قرية ، وكان الرجال ينضمون اليه ويقبلون عليه ، ولما اقترب من نابولى فى أول سبتمبر لم يجد الملك فرنسيس وزوجته جنة أوقى من الهرب عن طريق البحر .

وفى اليوم التالى ركب غاريبالدى ودخل عاصمة البوربون وأعلام النصر تخفق حوله ، وكان يجلس فى عربة مكشوفة وحوله بعض صحابته من المقاتلين القدامى فى قمصانهم الحمر المزرقة بدم المعارك ، واستقبله سكان المدينة جميعهم البالغ عددهم نصف المليون بالضجيج والعجيج وقد استطارتهم الفرحة واستخفهم الطرب وكانوا يتفنون الأغاني القومية والأناشيد الحماسية ودفعه تيارهم الزاخر فى طرقات نابولى حتى بلغوا به فوهات المدافع المحشوة فى حصن البوربون ، وكانت الجنود ترقب غاريبالدى فى العربة ، وكان منه أن هب واقفا وضم ذراعيه وتفرس فى وجوههم ، فحيوه ولم يطلق أحد منهم رصاصة واحدة .

وأصبح غاريبالدى القائم بالأمر فى نابولى وصقلية ، وكان ذلك مهمة شاقة ، فهو لم يكن رجل سياسة ولا رجل ادارة ، وقد استغل هذا الكثيرون ، لقد كان جنديا ، وكان نظره متجها الى البلاد الواقعة فى شمال نابولى والتي تقهر اليها معظم جيش البوربون ، وكان لابد من معالجة هذه المشكلة قبل تحرير المملكة برمتها والتأهب لتسليمها الى الملك فيكتور عمانويل .

وكان سبب أشد المشكلات اعتياصا على غاريبالدى موقف كافور المتوى ، فرئيس وزراء بدمونت كان لا يؤمن ايمانا تاما بحسن نية غاريبالدى ، ورجل مطبوع على سوء الظن مثل كافور كان يبدو له أن

رجلا موهوبا فى قيادة الجيوش مثل غاريبالدى لابد أن تتراعى أطماعه الى بسط سلطانه على المناطق التى غزاها .

والواقع أن هذين الرجلين العظيمين لم يفهم أحدهما الآخر قط ، ولم ينطو أحد منهم للآخر على شىء من الحب ، ولقد أخفق كافور فى تقدير وطنية غاريبالدى البريئة من الأثرة ، كما عجز غاريبالدى عن فهم الشبكة العنكبوتية الواسعة للدبلوماسية الأوربية التى كان كافور ينسج خيوط طريقه بها فى حذر واحتياط .

كانت هناك مشكلة الولايات البابوية الباقية ، ولاية أومبريا وولاية مارشيز وروما نفسها ، وكان يؤيد البابا فى سيطرته على هذه الولايات نابليون الثالث امبراطور الفرنسيين ، ولو ترك الأمر لغاريبالدى لوصل زحفه الى روما ، ولكن كافور كان حريصا على أن تظل فرنسا فى جانبه حتى تسلم إيطاليا المتحدة من الخطر ، وكانت خطته أن يرد يده عن روما فى الوقت الذى يعقد فيه العزم على غزو الجيش البدمونتى لأومبريا ومارشيز ، وحينما عارض نابليون فى ذلك قال له كافور « اذا لم تقبل فيكتور عمانويل فقد تحصل على غاريبالدى » .

ونرى من ذلك أنه استفاد الى أقصى حد من انتصار غاريبالدى فى الجنوب ، ولكنه أقام العقبات فى طريق غاريبالدى فى أثناء قيامة بذلك ، وفى سبتمبر تحركت جيوش الرجلين لاستكمال تحرير إيطاليا ، ومضى جيش بدمونت لطيته حتى شاطئ الادرياتيكي ، ثم أخذ يتجه جنوبا متحيا ناحية نابولى ، وحارب قوات البابا غير المتأسكة وسحقها سحقا .

وفى أثناء ذلك كان غاريبالدى يزحف بجيشه شمالا من نابولى الى نهر فولتورنو حيث كان جيش البوربون قد ثبت أقدامه وركز

قوته ليقف الموقف الأخير ، وكان تحت امرة غاريبالدى قرابة واحد وعشرين ألفا من الجنود لمنازلة جيش البوربون الذى تجاوز عدده الخمسين ألفا من الجنود ، وهكذا كانت استجابة شمال ايطاليا لغامرة الألف الرائعة، وطوال صيف سنة ١٨٦٠ كان النصف الشمالى من ايطاليا فى حركة قومية دائبة مشبوبة الحماسة واسعة الانتشار ، ونهضت المدن والبلاد والقرى نهضة رجل واحد تقدم المال والسلاح والمؤونة وقبل كل شئ المتطوعين من الرجال لشد أزر غاريبالدى .

وبين شهر مايو وشهر سبتمبر أبحرت من جنوا وليجورن الى نابولى أربع وثلاثون سفينة تحمل القوات التى ستحارب الى جانب الباقين من الألف وقائدهم المحبوب ، وعلاوة على هؤلاء كان عند غاريبالدى عدد ضخم من الصقليين ومتطوعي النابوليين وبعض المدنيين وفريق من جنود جيش البوربون السابقين الذين انضموا الى جيشه .

وكانت معركة فولتورنو تجربة غاريبالدى الفلة فى الحرب حسب أصولها المرعية وبالجيوش المصطفة على مسافات مترامية تشمل سبع مدن أو ثمانى مدن ، وبرغم أن رجاله كانوا شجعانا فانهم لم يكونوا مدربين مثل الألف الأصليين ، وقد جشمتهم صعوبات الزحف الطويل الى نابولى متاعب جمة وكلفتهم المعارك السابقة للمعركة الكبرى خسائر جسيمة فى الأرواح ، وكان العدو أوفى منهم أهبة وأحسن تسليحا وجيشه مكونا من جنود مدربين محترفين، وكان مع غاريبالدى ضباطه البارعون الذين يمكن الثقة بهم والاعتماد عليهم ، وكانوا موزعين فى دائرة متسعة ولكل واحد منهم قيادة مستقلة .

ولكن الكثيرين من الجنود الذين كانوا من ناشئة الشبان كانوا يشبهون ذلك الشاب الشريف القادم من ميلانو الذى سأل أحده

الانجليز لماذا يتخلى عن حياة الترف ويؤثر عليها حياة كحياة الكلاب دون أن يتقاضى شيئا أو يقدم له طعام ، وكان غير مزرد بما يكفي من العتاد ويكاد يكون فى أسمال ، فأجابه قائلا : « منذ أسبوعين استولى على اليأس وهممت بأن أنفض يدى من الأمر كله ، فجاء غاريبالدى ووقف ولست أدري لماذا ، ولم يسبق لى قط أن بادلته الحديث وربما ظهر على السأم والضيق ، والواقع أننى كنت كذلك ، ووضع غاريبالدى يده على كتفى واكتفى بأن قال بصوته الحفيض الحفى الذى بدا لى كأنه روح يهتف فى أعماق نفسى « تشجع .. تشجع .. اننا نحارب من أجل بلادنا » فهل تظننى أستطيع التراجع بعد ذلك ؟ وفى اليوم التالى خضنا غمار معركة فولتورنو » .

وانتصر غاريبالدى انتصارا باهرا ، وفى اليوم الثانى من أكتوبر هزم غاريبالدى آخر جيوش البوربون التى لم يبق منها بعد المعركة سوى فلول أبيدت فى خلال الأيام الباقية من الشهر ، وفى صباح يوم ٢٦ من أكتوبر استيقظ غاريبالدى وجنوده لابسو القمصان الأحمر من نومهم فى المعسكر ليروا جيش فيكتور عمانويل زاحفا على الوادى أمامهم ، فاستدعى غاريبالدى أركان حربيه وامتطى صهوة جواده ومضى الى جانب الطريق ينتظر قدوم مليكه ، وكان القائد يلبس القميص الأحمر المخرج بدم المعارك والبنق ، ونظر جنود جيوش الشمال الحسنو البهزة الى هؤلاء الشعب الغبر وهم يتقدمون .

وفجأة سمع صوت الركب الملكى ، وارتفعت أصوات تصيح قائلة : « الملك .. الملك .. الملك » وأخب الملك جواده القاره الى ناحية غاريبالدى ، فرفع القائد قبعته السوداء البالية من فوق رأسه وصاح « انى أحيى أول ملك لاطاليا » .

فبسط الملك يده وأمسك بيد غاريبالدى ، وظل قابضا عليها طويلا وبشدة ، ثم سارا على جواديهما جنبا الى جنب ووراءهما أركان

حربهما وكانوا مزيجا عجيبا من ذوى القمصان الحمر الرثة ولابسى
الحلل اللامعة المحلاة بالزخارف والأوسمة والنياشين .

وبرغم ذلك لم تخل ساعة الانتصار من الألم المرير ، فبينما كان
راكبا الى جانب الملك الذى لولاه لما انتظم له الملك أخبر أن جيش
بدمونت الملكى سيتولى من ذلك الوقت الأعمال الحربية ، وأنه ليس
هناك حاجة الى جيش غاريبالدى ، وقبل غاريبالدى هذا الأمر بروحه
العظيمة التى لم تخذله ووطنيته الخالصة المخلصة .

وكان حاضرا فى غرفة العرش حينما تسلم فيكتور عمانويل
نابولى وصقلية رسميا وضمهما الى مملكة ايطاليا ، وعاد غاريبالدى
بعد هذه الحفلة فردا عاديا مرة ثانية ، وبرغم أن الملك عزله فقد فكر
فى مكافأته بأن يهبه قلعة ملكية وسفينة وضياعا وألقابا لأبنائه
وصداقا لكريمته ، فرفض غاريبالدى ذلك كله .

وغادر نابولى مع ابنه مينوتى رجلا فقيرا كما كان طوال حياته ،
ولم يحمل معه شيئا على البأخرة التى ركبها الى كابريرا سوى حقيبة
من بذور القمح لمزركته الصخرية ، وحضر قليلون من خاصة أصدقائه
فى ظلام فجر نوفمبر ليروه وهو راحل ، وودعهم غاريبالدى بما انطوت
عليه نفسه من الحب الذى بث فى نفوسهم الشجاعة والهمهم البطولة
وأثار شجونهم الآن وأسأل دموعهم ، وكانت كلماته الأخيرة وعدا لهم
باللقاء مرة ثانية فى روما .

وكان هذا هو الهدف التالى لحياته ، فلا بد من تحرير روما
وفينسيا قبل أن تتم رسالته ، وبرغم انه عاد الى الحرب بعد ذلك
مرات عدة فانه لم يكن هو ولا أى إيطالى آخر الذى عمل على تخلص
ايطاليا من آخر سيطرة أجنبية عليها ، ومن عجائب المقدور أن الفضل
فى ذلك يرجع الى قوة بروسيا الصاعدة .

ففى سنة ١٨٦٦ هزمت بروسيا النمسا فى الحرب وتركتها بمكانة من الضعف لا تستطيع معها الاحتفاظ بفينيتيا ، ولذلك نزلت عنها لاطاليا ، وفى سنة ١٨٧٠ سحققت بروسيا فرنسا وناپليون الثالث الذى استقال وعمد الى الفرار ، وفقد البابا نصيره الفرنسى ، واستسلمت روما لفىكتور عمانويل معطية له فى النهاية عاصمته القومية ومعطية لاطاليا وحدتها الكاملة .

واليوم طوى عهد أسرة فىكتور عمانويل وأصبحت ايطاليا جمهورية ، وبقيت البلاد المتحدة التى حارب غاريبالدى من أجلها ، وتاريخها الطويل يشمل ألفى سنة من تاريخ الحضارة الغربية ، بعضه كان باهرا لامعا وبعضه الآخر كان شائنا مخزيا ، ولا تزال ايطاليا حتى اليوم تحمل آثار ندوبه نتيجة لمئات السنين من التفرق والانقسام ولا تزال تنعكس تلك الفروق والحلافات فى عادات أهلها . وتقاليدهم ، ولكن اسما واحدا يجمع شملهم ويشعرهم بكرامتهم القومية ، وهذا الاسم هو غاريبالدى .

ومن الشمال الحديث الناشط الى نهاية صحراء صقلية الداخلية لا يوجد اسم أحب الى نفوس الايطاليين من اسم غاريبالدى ، ويمثاله القائم على قمة نصب جميل يشرف على قلب كل مدينة ايطالية ، وليس هناك قرية من الضالة بحيث لا تشمل شارعا أو لا تتسع لميدان يسمى باسمه ، وحينما يرتفع الشعب الايطالى الى خير مافيه فانه يكون ملبيا صوت الرجل الواضح البسيط الذى كان يرتدى القميص الأحمر والبنق والذى قاده الى الحرية فى أعظم أوقاته وأمجد ساعاته .

صدر من هذه السلسلة

- | | |
|-------------------------|-------------------------|
| ١ - سيمون بوليفار | ترجمة أحمد قاسم جودة |
| ٢ - قاهره الحمى الصفراء | ترجمة الدكتور كمال سعيد |
| ٣ - جنكيز خان | ترجمة مبرى أمين |
| ٤ - ليوناردو دافينشى | ترجمة سامى ناشد |
| ٥ - كريستوفر كولمبس | ترجمة رجائى نجيب مقار |
| ٦ - الاسكندر الأكبر | ترجمة فاروق القاضى |

مؤسسة طباعة الألوان الممتدة

٨ شارع المصري - مصر القديمة - القاهرة

ت. ٣٢٥٠٧

هَذَا الْكِتَابُ

يضم هذا الكتاب قصة كفاح غاريبالدى البطل - ذى العزيمة والارادة التى لا تعرف حيلولة الحوائل دون نفاذها - الذى أنشأ إيطاليا الحديثة الموحدة بعد أن كانت ممزقة دويلات دويلات . فتقدم لنا المؤلفة لمحات كاشفة ومشاهد رائعة من حياة هذا البطل الحقيقى الذى تفوق شجاعته اقدام أبطال الأساطير . وان قصة كفاح غاريبالدى لتطول فلا يفيها حقها منك الا أن تقرأ عنها هذا الكتاب الذى بين يديك ، لترى بعينيك كيف تكون عزمات الأبطال فى كفاحهم من أجل أوطانهم .

ألا ما أجدر شبابنا الفتى الناهض أن يطالعوا هذه الصفحة الرائعة من صفحات الاخلاص والعزم فى هذه الفترة الخطيرة من تاريخ الأمة العربية التى تنشد الوحدة بعد تمزق كما كانت إيطاليا تنشد الوحدة منذ مائة عام .

من مقدمة

الدكتور زكى نجيب محمود



245
32d



0361312

سنة ١٩٦٣

الثنى ٢٠ قرشا